المقاومة الفلسطينية في روايات ربعي المدهون

بالإشارة الخاصة إلى "مصائر"

(بحث جامعي مقدم لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراه)

الباحث

شريف الإسلام

تحت إشراف:

البروفيسور مجيب الرحمان

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعةجواهر لال نهرو

نيو دلهي، الهند ــ 67

2016م/2017م

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

Date: 25/07/2017

DECLARATION

I declare that this dissertation entitled **"Palestinian Resistance in the novels of Rabai Al-Madhoun with special reference to Masayer"** submitted by me is an original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University/Institution partially or fully.

S. Islam
Shariful Islam
(Research Scholar)

Mujeebur Rahman
Prof. MUJEEBUR RAHMAN
(SUPERVISOR)
CAAS/SLL&CS/JNU

Prof. Mujeebur Rahman
Center of Arabic & African Studies
SLL&CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. RIZWANUR RAHMAN
CHAIRPERSON
CAAS/SLL&CS/JNU

مقدمة

إنه لمن دواعي الفرح والغبطة أن الله سبحانه وتعالى أعطاني فرصة قيمة لتقديم هذه الأطروحة لنيل شهادة ما قبل الدكتوراة حول عنوان " المقاومة الفلسطينية في روايات ربعي المدهون بإشارة خاصة إلى "مصائر" إلى قسم الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهرلال نهرو بنيو دلهي، تحت إشراف البروفيسور مجيب الرحمن حفظه الله ورعاه.

هذه الدراسة ذات أهمية بالغة لأنها تتعلق بالشعب الفلسطيني الذي يواجه كل يوم اعتداءات وحشية من قبل اليهود ومن الدولة المحتلة، وأصبح في وطنه أجنبيا، وكل هذا بدأ من النكبة 1948م وما زال يستمر عبر السنين. هذه الظروف والأوضاع الخطيرة تمخضت عن أدب حي وقوي نال قبولاً واسعاً وتقديرا نقديا في العالم العربي والعالم كله.

ومن المعلوم أن فلسطين بقعة مباركة، بل هي من أقدس البلاد وأشرفها، ولها في قلوب المسلمين جميعاً مكانة سامية، ففيها المسجد الأقصى- المبارك الذي شرّفه الله تعالى بالقدسية، وجمع فيه الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في ليلة الإسراء والمعراج، تكريماً لنبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فالمسجد الأقصى- مبارك في ذاته مباركة الأرض التي حوله، وهي أرض فلسطين، وسرّ هذه البركة أن تلك الأرض هي مهبط الرسالات السماوية، ومهد الكثير من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأفضلها «القدس» حيث المسجد الأقصى- أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث للحرمين الشريفين، ومسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ومعراجه، ويذكر الألوسي في تفسيره سبب هذه البركة، حيث يقول: «ووصفها بعموم البركة لأن أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بُعثوا فيها، وانتشرت في العالم

شرائعهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية»[1]. ويدعي أهل الديانة جميعا أنهم أحق بصيانة المسجد الأقصى، وهم أحباء عند الله، ولذلك منطقة فلسطين والمقاومة من أجلها من قبل الشعب الفلسطيني قد سجلت تاريخا ضاربة جذورها في أعماق الزمان ولا يمكن لأحد انفصالهما عن أحد.

وظهر فن الرواية في فلسطين أخيرا بسبب الاضطرابات والمقاومة السياسية التي حلت بها منذ وقوعها تحت الانتداب البريطاني، وعدم اهتمام النقاد بالجهود الروائية التي ظهرت، كما أن سلطات الانتداب حصرت التعليم في أبناء الأسر الموالية لسياستها.

وعلى الرغم من تأخر ظهور الفن الروائي ، والأسباب التي أدت إلى تخلفه فإن نهضة أدبية قد حدثت في فلسطين وخصوصاً في مجال الشعر والترجمة، والأدب الفلسطيني الذي أنتجه المهجريون والمعتقلون في السجون، فنرى في الكتابات الأدبية الاعتقالية أكثر قدرة على التعبير على نفسية العقل الإنساني المعتقل. واحتلت المقاومة الفلسطينية مرتبة مهمة في الأدب العربي، ولها طابع خاص تتميز به عن الآخرين. وأدب المقاومة هو الأدب الذي ينتج عن اختلاط المعاناة بمشاعر التمرد، التي تختلج في نفس الأديب أو الشاعر في مواجهة الظلم والإحتلال والإضطهاد، وأدب المقاومة الفلسطينية كان يعنى من عقد الستينات عند ما اكتشف رجاء النقاش محمود درويش وكتب عنها غسان كنفاني، في ظروف بالغة الصعوبة، ولم تلبث أن اتسعت دائرة الضوء لأدب المقاومة الفلسطينية وبدأ الأدباء والشعراء يمارسون مهاراتهم في هذا الفن.

[1]. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي 17/ 89

ويسرد الكاتب المعاناة السياسية للفلسطيني، من خلال سياسة التمييز العرقي التي تنتهجها السياسة الإسرائيلية، والمعاناة الاجتماعية من خلال حياة أبطالها، واليهودي الذي لا يتوقف عن الاستثمار في معاناته في الهولوكوست، في جريمة لم يكن للفلسطيني يد فيها.. «مبينا الفرق الكبير في مصير اليهودي، الذي يعيش في دولة قوية بالتسليح العسكري.. والفلسطيني المحروم من الحقوق على أرضه وعلى كل الأراضي العربية». اليهودي الذي بنى حياة جديدة في دولة ديمقراطية تخدمه وحده، بينما يعجز الفلسطيني عن الحصول على دولة، وتتبعثر كرامته على أيدي السارقين أرض وطنه الحبيب. الكاتب لم ينس الثغرات في المجتمع الفلسطيني، الذي يرفض حق ابنه المثلي، بينما تحتضنة إنسانية مزيفة لأنها تتغاضى في الوقت ذاته عن تطبيق قوانينها في جرائم الشرف، الذي يربطه الفلسطيني فقط في الجسد الأنثوي.. وتتغاضى الحكومة الإسرائيلية، وربما عمدا عن هذه الجرائم، ربما لتفادي تغيير موروثات عقيمة، وربما تحقيقا للمثل المعروف "فخار يكسر بعضه".

عمل المدهون على إنتاج رواية فلسطينية شاملة، فكتب عن فلسطين التي كانت، وعن الفلسطينيين الذين انتهوا إلى خارجها، وقرأ أسى الفلسطينيين في المنفى، حيث الإقامة في اللاإقامة، ومنفاهم الساخر داخل فلسطين وغزة، وأكمل المشهد الروائي بحوار بين عذابات الفلسطينيين و"الهولوكوست" .

وقد عالج المدهون قضيته الوطنية بمنظور عميق، وعبر عنها إبداعيا بتقنيات جديدة، وبلغة تنوس بين الشعر والفلسفة، لافتا إلى أنه انتسب في اجتهاده اللامع إلى الفلسطينيين الكبار الثلاثة: غسان الراسم الرهيف لمعنى المأساة، وإميل حبيبي في نثره الجميل الذي لا يضارع، وجبرا ابراهيم جبرا الواسع الثقافة المتعدد

التجربة. لكن كتابة ربعي أضافت إلى هولاء جميعا بُعداً جديداً لم تعرفه الرواية الفلسطينية، وسوف استعرض هذه النقاط في بحثي إن شاء الله بقدر من التفصيل.

وقد كان لي مرحلة اختيار موضوع البحث من أهم المراحل وهي الأساس وتبدو مهمة شاقة على الباحث، واختيار الموضوع أمر شاق وبحاجة إلى استشارة. أنا أيضا مررت بهذه المرحلة، فبعد انتهاء السنة الأولى من الماجستير ما قبل الدكتوراة، كان على أن أقوم باختيار موضوعي للبحث، وعلى الرغم من أنني كنت مهتما في البحث في باب الرواية ولكن لم أتمكن من الوصول إلى أي نتيجة ولم يقع اختياري على أي موضوع. فبينما كنت قلقا بين هذا وذاك، شاورت زميلين في المركز وبالمناسبة كلاهما اقترحا لي أن أفكر في هذه الرواية. و أفادا أيضا أنها فازت بالبوكر العربية للعام 2016م. فتاقت نفسي إلى قراءة الرواية، و قد شدت الرواية انتباهي في أول الأمر و أسرتني حبكتها الفنية وبناءها المحكم، ووجدت محتواها رائعا وشيقا، فانتهيت من قراءتها في غضون ستة أيام، ومن حينه، أزمعت على استكشاف ملامحها الفكرية والفنية في بحث مستقل. والشئ المهم الذي دفعني إلى اختيار هذه الرواية كبحث، أنها تنتسب ضمنيا إلى الروايات التي ناقشت القضية الفلسطينية بأكثر من منظور وجانب، ولكن هذه الرواية أضافت بعدا لم تعرفه الرواية الفلسطينية من قبل، من حيث "بلاغة الحنين"، التي أخذ بها المؤلف، ما جعل من روايته عملا أدبيا رياديا نفذ إلى قرار المأساة، ذلك أن هذه البلاغة نثر يضيئ ويسائل، وأداة معرفة واكتشاف ومنظر خصيب للعالم. أعطى المدهون تأسيسا لرواية فلسطينية مغايرة، تقارن بين اختلاف الأزمنة، وتقف أمام الحاضر قبل غيره، وتعرف أن الرواية لا تأتي من الغضب والدموع، بل من عمل في اللغة، وفي تاريخ الرواية أيضا.

ومن أسباب اختيار هذا الموضوع أيضا، أن هذه الرواية صدرت حديثا، و لم تشتهر إلا بعد فوزها بجائزة البوكر العربية في 26 أبريل 2016م، فأعتقد أن أحدا لم يقم باختيارها للبحث على مستوى ماقبل الدكتوراة أو الدكتوراة على الأقل في الجامعات الهندية. و نظرا لحداثتها وأهميتها و طرافة القضية التي تتناولها، أحببت أن أختار هذه الرواية كموضوع لنيل الشهادة ماقبل الدكتوراة. فأدعو الله التوفيق و النجاح في مرامي هذا.

وقد قسمنا هذا البحث إلى ثلاثة أبواب، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة، وكل باب من أبوابه سيتناول قضية جوهرية أو مشكلة رئيسية و كل باب سيتضمن ثلاثة فصول على النحو التالي:

مقدمة:

الباب الأول

فسنذكر في هذا الباب عن الأوضاع السياسية و الإجتماعية في فلسطين و أسباب النكبة الكبرى ويتضمن ثلاثة فصول منها:

الفصل الأول: تاريخ موجز للقضية والمقاومة الفلسطينية

الفصل الثاني: التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الفصل الثالث: تاريخ النكبة الفلسطينية الكبرى وآثارها البعيدة على المجتمع الفلسطيني والعربي

الباب الثاني

فنتحدث في هذا الباب عن لمحة تعريفية بروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" وكاتبها ومنهجها الفني سيتضمن هذا ثلاثة فصول منها:

الفصل الأول: تعريف موجز بالروائي"ربعي المدهون" .

الفصل الثاني: دراسة موضوعية لروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على رواية "مصائر" .

الفصل الثالث: دراسة فنية لروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على رواية "مصائر".

الباب الثالث

وهذا الباب يختص بدراسة رواية "مصائر" لربعي المدهون

الفصل الأول: صورة النكبة الفلسطينية الكبرى في رواية "مصائر".

الفصل الثاني: مكانة رواية "مصائر" لربعي المدهون بين الروايات المماثلة المعاصرة الأخرى.

الفصل الثالث: دور رواية "مصائر" في صحوة الحنين الوطني للفلسطينيين في المهجر.

خاتمة:

وفي الأخير أوجه تحية خالصة وأقدم شكرا جزيلا إلى أمى الحنون التي استظلت بها في حين وقعت في صعوبة ومشكلة فهي قد هيأت لي جميع التسهيلات لحصول العلم والمعرفة، وأبي الحنون الذي تحمل المشقات والمصائب في سبيل تزويدنا بالتعليم وأوصاني دائما بأن أمشي على دروب العلم دون ملل أو كلل. وبهذه المناسبة يجب أن أقدم الشكر والامتنان إلى البروفيسور مجيب الرحمن حفظه الله ورعاه، هو الذي أرشدني إلى أماكن الصواب والسداد، وأنقذني من مواطن الخطأ، ولم يأل جهدا في تقديم المساعدات القيمة، ومهد لي سبيل التحقيق وطريق البحث لإنجاز هذه الأطروحة ولإتمام هذه الرسالة البحثية، فله مني جزيل الشكر والامتنان والتقدير والاحترام.

وكذلك أعبر عن شكري العميق وتقديري البالغ لجميع الأساتذة الكرام في مركز دراسات اللغة العربية والإفريقية الذين ساعدوني في إعداد البحث.

والله الموفق والمستعان

شريف الإسلام

الباب الأول: الأوضاع السياسية و الإجتماعية في فلسطين و أسباب النكبة الكبرى

الفصل الأول: تاريخ موجز للقضية والمقاومة الفلسطينية

الفصل الثاني: التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية:

الفصل الثالث: تاريخ النكبة الفلسطينية الكبرى وآثارها البعيدة على المجتمع الفلسطيني والعربي

الفصل الأول

تاريخ موجز للقضية والمقاومة الفلسطينية

القضية الفلسطينية:

قضية فلسطين هي القضية المركزية للأمة الإسلامية وهي قضية ليست خاصة بفلسطين ولكنها تخص العالم الإسلامي كله، وإن أرض فلسطين بالنسبة للمسلمين تعتبر أرضا مقدسة كما جاء ذكرها في القرآن الكريم (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)[1]. وهي أرض مباركة كما قال سبحانه وتعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)[2]. والقضية الفلسطينية من أهم القضايا الراهنة المطروحة على الساحة السياسية الدولية. فكيف بدأت هذه القضية وما أهم التطورات التي عرفتها؟

في عام 1896م قام الصحفي اليهودي "تيودور هرتزل" (Theodor Herzl) بتأليف الكتيب تحت عنوان "الدولة اليهودية" وإن لم يحصل الكتيب على صدىً واسع في البداية إلا أنه وضع فعلا حجر الأساس لظهور الصهيونية السياسية وتأسيس الحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين 29 و 31 أغسطس 1897م وانتخاب هرتزل رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية، دعا هرتزل في هذا لكتيب لإقامة وطن يجمع فيه اليهود المتفرقين واقترح فلسطين أو الأرجنتين. وأقيمت مؤتمرات يهودية لجمع التبرعات

---

[1]. المائدة (21)

[2]. الإسراء (1)

ومساندة الحركة الصهيونية وتم الاتفاق على الهجرة المنظمة إلى فلسطين[1]. بداية عام 1900 تأنت الدولة العثمانية المسلمة التي كانت تحكم فلسطين وقويت قوة بريطانيا في المنطقة. وفي عام 1917م بانتهاء الحرب العالمية الأولى تقاسمت بريطانيا وفرنسا بلاد الشام، فجاءت فلسطين في سيطرة بريطانيا. وفي سنة 1917م أعطت بريطانيا وعد بلفور إلى اليهود (وعد بلفور أو تصريح بلفور Balfour) Declaration : هو الاسم الشائع المطلق على الرسالة التي أرسلها آرثر جيمس بلفور – Arthur James Balfour بتاريخ 2 نوفمبر 1917م إلى اللورد وولتر ورتشيلد Walter Rothschild يشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[2]. ويقتضى هذا الوعد أن تساعد بريطانيا اليهود أن يقيموا وطنا قوميا لهم في فلسطين وهذا طبعا يشمل تسهيل الهجرة الكبيرة لهم ومساعدتهم في تملك الأراضي والتجارة والصناعة في فلسطين. بسبب الهجرات الكثيرة والكبيرة منذ ما قبل 1900م، خلق اليهود الوافدون من أوروبا والاتحاد السوفيتي الكثير من المشاكل والنزاعات مع سكان فلسطين الأصليين، وفي عام 1936-1939 نشبت الثورة الفلسطينية الكبرى[3].

نشأت فكرة تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية مع تحديد منطقة دولية حول القدس في تقرير لجنة بيل (Peel) 1937م وتقرير لجنة وودهيد (Woodhead) 1938م، وصدر هذان التقريران عن لجنتين تم تشكيلهما على يد الحكومة البريطانية لبحث قضية فلسطين إثر الثورة الفلسطينية الكبرى التي

---

[1]. تيودر هرتزل – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

[2]. وعد بلفور – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

[3]. www.palqa.com/ . تعلم قضية فلسطين في 10 دقائق

دارت بين السنوات 1936م و 1939م[1]. أعلنت بريطانيا في عام 1947 عزمها على إنهاء الانتداب على فلسطين وعرضت الأمر على منظمة الأمم المتحدة، فأصدرت الأمم المتحدة في نوفمبر عام 1947 إقرارها بتقسيم فلسطين إلى 3 أجزاء: جزء لليهود (56% من المساحة) رغم أنهم لا يمثلون سوى 30% من السكان وجزء للعرب (43% من المساحة) أما فيما يتعلق بمدينة القدس والأماكن المقدسة فقد نص الجزء الثالث من القرار على أن يجعل مدينة القدس كيان منفصل خاضع لنظام دولي خاص تديره الأمم المتحدة من خلال مجلس وصاية يقوم بأعمال السلطة الإدارية. رحب اليهود بقرار التقسيم واعتبروه سندا قانونيا للإعلان عن تأسيس دولتهم في 14 مايو 1948م في نفس اليوم الذي انسحبت فيه القوات البريطانية، بينما رفضه العرب واستعدوا للتصدي له وإحباطه.

نشبت الحرب في 15 مايو 1948م بمشاركة عدد من الدول العربية المجاورة (مصر، شرق الأردن، سوريا، لبنان والعراق) وأحرزت الجيوش العربية في البداية عدة انتصارات غير أن القوات الصهيونية تمكنت في النهاية من الانتصار بفضل الدعم الذي قدمته لها القوى الكبرى.

المقاومة الفلسطينية في مرحلة ما قبل النكبة:

المقاومة الفلسطينية هو مصطلح يشير إلى الحراك والسياسات والدعوات والعمليات التي تدعو أو تدعم مقاومة الاحتلال والاضطهاد والاستعمار الصهيوني للفلسطينيين والأرض الفلسطينية، يستخدم المصطلح لوصف تحركات فلسطينية متنوعة تتراوح بين المقاومة المدنية، الشعبية والمسلحة. ويستخدم

[1]. /islamstory.com. تقسيم فلسطين – قرار تقسيم فلسطين 1947

المصطلح للإشارة إلى الفترة بين بدء الإحتلال البريطاني لفلسطين عام 1918 وحتى يومنا هذا[1].

بدأت المقاومة الفلسطينية مع بداية هجرة اليهود إلى فلسطين، قريبا من ثمانينات القرن الماضى، وتزايدت المقاومة واختارت شتى الأشكال، مع إعلان الانتداب البريطاني ثم مع إعلان تأسيس الكينونة الصهيونية؛ حيث مرت المقاومة عبر تاريخها بمراحل فارقة وبارزة نقدمها في السطور القادمة.

1. تعود بداية المقاومة الفلسطينية للوجود الصهيوني إلى عام 1891، حين قدم عدد من رموز ووجهاء مدينة القدس بمذكرة إلى الصدر الأعظم في الأستانة يطالبونه بالتدخل لمنع الهجرة اليهودية وتحريم امتلاك اليهود للأراضي الفلسطينية، أما أول عمل عسكري فيعود إلى عام 1898، بعد مرور أقل من عام على مؤتمر تأسيس الصهيونية؛ حيث تمت مهاجمة تجمع يهودي أقيم في منطقة (جرش)

وتنوعت أساليب المقاومة في هذا الوقت بين مقاومة سياسية عبر رفض موجات الهجرة اليهودية والوقوف ضدها سياسيًّا وجماهيريًّا، وبين مقاومة اقتصادية عبر تشجيع الاقتصاد الفلسطيني وشراء الأراضي المهددة بالبيع إلى اليهود، وبين مقاومة شعبية بداية من المؤتمرات إلى المظاهرات إلى مهاجمة تجمعات اليهود المهاجرين إذا لزم الأمر.

2. عقب الحرب العالمية الأولى وقيام بريطانيا باحتلال فلسطين عسكريًّا، ثم الانتداب عليها سياسيًّا، دخلت المقاومة الفلسطينية مرحلة جديدة من المجابهة

[1]. المقاومة الفلسطينية – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

والتحدي تجاه محاولات بريطانيا لاستقرار اليهود في فلسطين؛ حيث تم تعيين الوزير البريطاني اليهودي "هربرت صاموئيل" (Herbert Samuel) مندوبًا ساميًّا على فلسطين في عام 1920 إثر إعلان الانتداب، والجدير بالذكر أن صاموئيل هو أول مسئول بريطاني أيد رسميًّا فكرة توطين اليهود في فلسطين، وذلك في عام 1908، وقبل حوالي 9 أعوام من صدور وعد بلفور.

في عام 1922 صدرت وثيقة الانتداب عن عصبة الأمم، وتضمنت مقدمتها وعد بلفور، وهو ما اعتبر تأييدًا دوليًّا للوعد البريطاني لليهود الصهاينة، وتوسع نشاط اللجنة الصهيونية في فلسطين برئاسة "حاييم وايزمان" (Haim Weisman) واتخذ شكلا علنيًّا، الأمر الذي كان إيذانًا بتحول المقاومة الفلسطينية إلى أشكال أكثر شمولاً وأكثر عنفًا؛ حيث تم عقد أكثر من 7 مؤتمرات جماهيرية بين عام 1919م و 1929م، كما تعددت المواجهات العنيفة والدموية بين المقاومة وقوات الاحتلال الإنجليزي.

3. في عام 1919 اندلع حراك يافا؛ حيث قام العرب الفلسطينيون بمهاجمة مركز الهجرة الصهيونية في مدينة يافا، لكن بريطانيا وقفت إلى جانب اليهود وقامت بقمع الحراك بالقوة.

4. في عام 1920، وتحديدًا في شهر إبريل نشبت الاحتجاجات مرة أخرى في موسم النبي موسى الذي يحتفل به الفلسطينيون، ووصلت المظاهرات– التي ساعدتها رموز فلسطينية كالحاج أمين الحسيني ورفعت صور الملك فيصل بن الحسين بصفة كونه ملكًا لسوريا وفلسطين- إلى يافا؛ حيث اشتبكت مع

المستوطنين اليهود والجنود الإنجليز، واستمر التحرك أسبوعًا وقامت بريطانيا خلاله بتنفيذ الأحكام العرفية.

5. شهد عام 1929 مظاهرات عنيفة، عقب اشتباكات للمسلمين مع مجموعات من الصهاينة أرادوا اقتحام المسجد الأقصى، وتأسست على إثرها جمعية حراسة المسجد الأقصى، التي انتشرت فروعها في معظم المدن الفلسطينية.

6. ثورة عام 1936 : شهدت حقبة أوائل الثلاثينات تزايدًا متسارعًا في معدلات هجرة اليهود إلى فلسطين و زيادة من لهيب المشاعر الفلسطينية و رفضهم المندوب السامي البريطاني و مطالبة قادة الحركة الوطنية بوقف الهجرة اليهودية وتشكيل حكومة وطنية ومنع انتقال الأراضي لليهود، كما شهدت هذه الفترة بداية تدفق السلاح بين أيدي اليهود وإنشاء معسكرات تدريب برعاية الإنجليز، الأمر الذي دفع المقاومة الفلسطينية إلى إعلان الإضراب العام الذي استمر لستة أشهر؛ حيث تكونت في هذه الفترة أول خلايا نظامية مسلحة بقيادة عز الدين القسام الذي حاصرته القوات البريطانية وقتلته ورفاقه بعد رفضه الاستسلام.

في عام 1937، انتقلت الثورة إلى الريف الفلسطيني، تزامنًا مع إصدار لجنة بيل الملكية تقريرًا متحيزًا للحركة الصهيونية حول أحداث عام 1936، فجاء بين توصيات اللجنة تقسيم فلسطين، الأمر الذي أشعل جذوة الثورة في نفوس الفلسطينين رغم غياب معظم شيوخ المقاومة في سجون الاحتلال الإنجليزي واضطرار بعضهم إلى مغادرة البلاد كالشيخ أمين الحسيني.

استخدم الاحتلال البريطاني أبشع أنواع القمع ضد حراك 1937، فتم قصف مناطق الثوار بالطائرات، وهدمت بالجرارات منازل المشتبه في تأييدهم للثوار؛ وهو ما أسفر عن سقوط أربعة آلاف قتيل وقرابة 12 ألف جريح[1].

رأينا في السطور السابقة أن المقاومة خلال مرحلة ماقبل النكبة عام 1948م مرت بمراحل مختلفة وأبسل الشعب الفلسطيني في الدفاع عن وطنهم بشكل كبير ولم يألوا جهدا في المقاومة والدفاع عن وطنهم العزيز رغم قلة التسهيلات والوسائل المتوفرة لديهم.

[1]. https://www.sasapost.com/palestinian-resistance/- قصة المقاومة في فلسطين..من هجرة اليهود إلى العصف المأكول – ساسة بوست

الفصل الثاني

التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية:

إن الإهمال والتجاهل المقصود من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه المواطنين العرب الفلسطينيين يتكشف عن جميع ميادين الحياة اليومية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية والتراثية ومن النواحي القانونية وامتلاك الأراضي وتشييد المباني ومخصصات السلطات المحلية العربية وأوضاع التربية والتعليم العام والتعليم العالي والعمل والخدمات الصحية العامة والرفاه الاجتماعي والثقافة والإعلام.

وعلى الرغم من أنهم يمثلون نحو 21% من المواطنين، واعتبارهم ظاهرياً مواطنين متساوين في الحقوق مع الإسرائيليين، فإن عرب الداخل الفلسطيني يعانون من اضطهاد عرقي وديني، وتمييز عنصري على كل المستويات[1].

فمنذ قيام دولة إسرائيل عام 1948م على أرض فلسطين، حاولت العصابات الإسرائيلية ومؤسسات الدولة وأجهزتها بكل إمكانياتها وبشتى الوسائل اقتلاع وتهجير الأقلية الباقية في فلسطين، وحين لم تتمكن من ذلك حاولت جاهدة تجريد الأقلية العربية من حقوقها والتضيق عليها من خلال ممارساتها اليومية وما زال هذا الأمر مستمرا حتى هذه اللحظة، إلا إن تمسك الأقلية العربية في الداخل بثوابتها وجذورها وإصرارها على البقاء والعيش على أرض الرباط، أرض الآباء والأجداد كان أقوى من كل المخططات الإسرائيلية لطمس الهوية والطابع العربي

[1]. عنصرية إسرائيل ضد عرب الـ48 في 8 نقاط – رصيف 22، هيثم الشريف، 20.09.2015

الفلسطيني والإسلامي وبقيت الشجرة الفلسطينية ثابتة في الأرض وفرعها في السماء عالية وشامخة تصارع كل الأعاصير التي تحاول اقتلاعها رغم أننا لا ننكر أنه في مرحلة تاريخية سقطت بعض الوريقات الضعيفة عن هذه الشجرة المباركة[1].

والجدير بالذكر بأن السياسة الإسرائيلية التي اتبعت تجاه المواطنين الفلسطينيين بعد قيام الكيان الصهيوني " إسرائيل " عام 1948م وحتى الآن لم تتغير أو تتبدل اللهم إلا في الأسلوب أو التكتيك، فالعقيدة أو الإيديولوجية الصهيونية المبرمجة والمخططة بشكل استراتيجي هي كما كانت من قبل من السلوكيات والتصرفات الإسرائيلية تجاه المواطنين الفلسطينيين خلال أكثر من خمسة عقود من الزمن في التاريخ الفلسطيني الحديث والمعاصر. على أي حال، إن الدولة اليهودية (إسرائيل) هي دولة عدوانية وقاعدة استعمارية متقدمة في الوطن العربي، تسترشد بسياسة الصهيونية العنصرية التي تسعى إلى تحقيق المصالح الاستعمارية الكبرى للعالم الغربي في الوطن العربي.

السجل اليهودي طافح بعذابات الفلسطينيين منذ نشأة الدولة اليهودية الأولى وحتى الآن ، وما زالت سياسة التطهير العرقي ، و" تنظيف البلاد " من العرب الفلسطينيين مستمرة ظاهرة في كل آن . فقد استولت المنظمات اليهودية على أكثر من 97 % من أراضي العرب الفلسطينيين في الخليل والمثلث والنقب والساحل منذ عام 1948م حتى الآن[2].

[1]. واقع الأقلية العربية في إسرائيل، جريدة الكرمل، نشرت بواسطة: زينب السحلي في أهم الأخبار، سلسلة إسرائيليات، يناير 9، عام 2012م

[2]. سياسة التمييز الإسرائيلية ضد الفلسطينيين- أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية مقدمة من الباحث كمال إبراهيم محمد علاونه في عام 2002م من جامعة النيلين، الخرطوم، السودان.

ومظاهر التمييز والعنصرية التي يحس بها الفلسطينيون من عام 1948م كثيرة ومتعددة ويصعب حصرها إلا أننا سنورد أبرز هذه المظاهر العنصرية باختصار، وهي:

التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية:

إن التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية تتمثل في مجالات ومنها كما يلي:

1. المجازر : بلغ عددها نحو ثلاثين مجزرة ضد الفلسطينيين ، مثل : مجزرة دير ياسين في 9 نيسان 1948م التي راح ضحيتها 254 مواطنا، ومجزرة كفر قاسم في 29 تشرين الأول عام 1956م التي راح ضحيتها 49 مواطنا فلسطينيا، ومجزرة الطنطورة التي راح ضحيتها نحو 200 فلسطيني، ومجزرة ناصر الدين، ومجزرة قبية وغيرها، لإرهاب وقمع الفلسطينيين.

والحكم العسكري الإسرائيلي نفذ من 1948م ولغاية 1966م رسميا، إلا إنه يطبق بين الحين والآخر. والأحكام والقوانين العرفية في البلاد تجددها الحكومة الإسرائيلية عبر البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) كلما انتهى مفعولها لتحديد نشاطات وفعاليات المؤسسات الجماهيرية العربية.

2. التمييز الإسرائيلي في المواطنة والحرمان من حق العودة للوطن، لا زال مطبقا على العرب الفلسطينيين، فالفلسطيني محروم من العودة إلى وطنه، وفي المقابل يتاح المجال لكل يهودي في العالم القدوم للاستيطان في فلسطين والحصول على الجنسية الإسرائيلية.

"خلال 52 عاما من إنشائه (1948- 2000) تمكن الكيان الصهيوني من استقدام نحو مليونين و 900 ألف مهاجر يهودي، وتزايد عدد اليهود في فلسطين المحتلة من 650 ألفا سنة 1948 إلى أربعة ملايين و 947 ألفا في نهاية سنة 2000، أي حوالي 38% من يهود العالم"[1].

3. التمييز الإسرائيلي في تجزئة المواطنين العرب إلى طوائف مختلفة حيث جرى تقسيم العرب إلى عدة طوائف سكانية (غير يهودية) : إسلامية، مسيحية، درزية، بدوية، والتعامل مع العرب على هذا الأساس كطوائف أو أفراد ساكنين غير مالكين لأرض أو بيت، وعدم التعامل معهم كأقلية قومية لها حقوق سياسية جماعية مثلما هو مقر في كافة المواثيق والقوانين الدولية في هذا المضمار. ومحاولات التفريق الإسرائيلية بين الفلسطينيين من مختلف الطوائف لم تتوقف.

4. وكذلك التمييز الإسرائيلي في ترخيص الأحزاب والحركات والجمعيات الفلسطينية، فعلى الأحزاب السياسية العربية يجب أن تعترف بيهودية الدولة قبل أن يتم الاعتراف بها كأحزاب سياسية مرخصة. وهناك الكثير من المؤسسات والجمعيات التي لاحقتها أجهزة الأمن الإسرائيلية وأغلقت أبوابها بحجج واهية.

5. والتمييز الإسرائيلي في الحياة السياسية والبرلمانية، فالعرب أجبروا على الانخراط في الأحزاب اليهودية – الصهيونية، حيث منعوا من تأسيس أي حزب سياسي عربي، إلا بعد عام 1988م، حيث تأسس أول حزب عربي، ويوجد الآن عدة حركات وأحزاب عربية هي: الحركة الإسلامية، والحزب الديمقراطي العربي، والحزب القومي العربي، والحركة العربية للتغيير، والتجمع الوطني الديمقراطي،

[1]. د. محمد صالح، محسن، القضية الفلسطينية، خلفياتها التاريخة وتطوراتها المعاصرة، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2012

والجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، وجبهة الوحدة الوطنية، وحركة أبناء البلد، ولجنة المتابعة الدرزية، ولجنة المبادرة الدرزية وحركة المستقلين وغيرها.

إن البرلمان (الكنيست الإسرائيلي) الذي يضم 120 نائبا، لا تتيح الأحزاب اليهودية – الصهيونية فيه لممثلي الأحزاب والحركات العربية البالغ عددهم 13 نائبا من تحقيق حقوق ومصالح منتخبيهم العرب، بل على العكس من ذلك، فان هذا البرلمان تفوح منه رائحة العنصرية اليهودية تجاه العرب، سواء من جهة سن قوانين عنصرية أو ملاحقة النواب العرب. فقد أصدر الكنيست قانون العودة عام 1950م، وقانون الجنسية عام 1953م، ومنع عودة اللاجئين الفلسطينيين لغاية الآن، هذا بالإضافة إلى سن قانون أملاك الغائبين، وقانون التعليم عامي 1949م، و1953م وغيرها من القوانين العنصرية.

6. والتمييز الإسرائيلي في المناصب الوزارية والإدارية العليا، فان تمثيل العرب في المؤسسات الحكومية والدوائر العامة لم يصل إلى الأمل المنشود، فالتمثيل العربي في كافة الوزارات والمؤسسات العامة في المعدل لا يزيد عن 4 % بينما يشكل العرب نحو 20 % من تعداد السكان في البلاد . وهناك العديد من الوزارات والمؤسسات الحكومية التي يحظر بشكل قطعي على العرب الدخول فيها[1].

7. التوزيع الجائر للثروة: تقسيم وتوزيع غير عادل للميزانيات والموارد على المستويين القطري والمحلي، إذ إن نسبة استثمار المكاتب الحكومية في القرى والمدن العربية ودعم المجالس البلدية والقروية فيها تعد ضئيلة للغاية إذا ما قورنت مع نسبة الاستثمار والدعم الموجهة للبلديات والمجالس المحلية والاقليمية اليهودية.

[1]. سياسة التمييز الإسرائيلية ضد الفلسطينيين- أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية مقدمة من الباحث كمال إبراهيم محمد علاونه في عام 2002م من جامعة النيلين، الخرطوم، السودان.

والأمر نفسه بطبيعة الحال ينطبق على مخصصات المياه للـري ومخصصـات معالجة وصيانة البنى التحتية إلى غير ذلك من الخدمات العامة[1].

التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات الاقتصادية:

تشتمل سياسة التمييز الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في المجالات الاقتصادية على النواحي الآتية:

1. مصـادرة الأراضي الفلسـطينية: صـادرت السـلطات الإسرائيليـة مسـاحات شاسعة من أراضي العرب بحيـث لم يتبقـى للعـرب إلا نسـبة تقـارب 5 ر2 % مـن مساحة فلسطين المحتلة عام 1948م البالغة أكثر من 21 ألف كم2، بالاسـتناد إلى قـوانين الطـوارئ البريطانيـة، والقـوانين العنصـرية التـي أصـدرتها الكنيسـت. واستخدمت الأرض العربية لإنشاء المستوطنات الاستعمارية : الإسكانية والزراعية والصناعية والعسكرية والدينية وسواها. وقد صدق الكاتب اليهودي الشهير حينما قال: " أريد عددا قليلا من اليهود الأمريكيين المشهورين، خصوصـا أولئـك الـذين أحترمهم، والذين علموني كل شئ، أريدهم أن يقفـوا ويقولـوا لنـترك الكـذب عـلى العـالم وعـلى أنفسـنا، لقـد سرقنـا فلسـطين، لقـد سرقناهـا. حتـى لـو أعطينـا الفلسطينيين حكما ذاتيا، أو تقرير مصير، أو الضفة الغربية، أو دولـة فلسـطينية، فإننا لا زلنا نسرق معظم أرضهم، فلنبدأ على الأقل بقول الحقيقة"[2].

---

[1] www.aljazeera.net/specialfiles/pages/513cd3af-d36b-4032-b2fc-f31e517d3901. الأقلية القومية العربية الفلسطينية في إسرائيل

[2]. ديفيد، رون، العرب وإسرائيل للمبتدئين، ص 210، رايتارس ايند ريدرس ببليشنغ، نيو يورك، 1993.

2. التمييز في الاستثمار الاقتصادي: يشمل الاضطهاد والاستغلال الاقتصادي وسيطرة اليهود على المقدرات والموارد الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية والسياحية وحصولهم على الامتيازات والإعفاءات الضريبية في مناطق التطوير.

ففي قطاع الزراعة تظهر المحاباة والتحيز للمزارع اليهودي سواء بالنسبة لمساحة الدونمات المتاحة للزراعة أو إنتاجية الدونم الواحد حيث يتاح لليهودي استخدام كافة الأساليب الزراعية الحديثة بينما العربي ما زال يعتمد على الزراعة التقليدية البدائية في كثير من الأحيان. والزراعة المروية تتركز في المزارع اليهودية، أما المزارع الفلسطيني فان الزراعة المروية لا تشكل له إلا نسبة ضئيلة قياسا باليهود، إذ لا تتجاوز 3 ر2 % من حصة اليهودي، وحتى إن المواطن العربي يفتقر إلى مياه الشرب.

ولا يوجد للعرب صناعات كبيرة مقارنة باليهود، إذ تتركز الصناعات العربية في الصناعات الخفيفة كالمحادد والمناجر والمعامل الصغيرة وتصنيع المخلالات والمواد الغذائية البسيطة وغيرها. وحال السياحة العربية ليس بأحسن من حال القطاعات الاقتصادية الأخرى، فالأماكن السياحية غير مؤهلة على المستوى المطلوب، في حين إن العناية بالمرافق السياحية اليهودية هي عناية مركزة وتحظى بالدعم الحكومي المميز. وبهذا فان الاقتصاد العربي هش يعتمد اعتمادا كليا على الاقتصاد الإسرائيلي في جميع المجالات.

وتجدر الإشارة هنا إلى تقرير جديد من تقارير الرصد السياسي الشهرية، وجاء التقرير في إطار مشروع مشترك لمدى الكرمل ومؤسسة الدراسات الفلسطينية. وأشار مراقب الدولة في هذا التقرير إلى أنه "لم يُصرف سوى 28% من

الموازنات المرصودة لبرنامج الاستخدام المخصص للمجتمع العربي [المجتمع الفلسطيني في إسرائيل] على مدى ثلاث سنوات من السنوات الخمس التي يغطيها هذا البرنامج [2010-2014]. ولم تعمل سلطة التطوير الاقتصادي على إعداد خطة واضحة لمتابعة برنامج البلدات الاثنتي عشرة، ممّا استحال معه متابعة واحد من أهداف البرنامج الرئيسية: وهو زيادة مستويات الدخل لكل فرد في هذه البلدات، ما حال دون إمكانية تقويم تقدّم البرنامج ونجاعته"[1].

3. التمييز بإتباع سياسة العمل العبري ومستويات الأجور. فقد عملت الهستدروت والوكالة اليهودية والحكومة الإسرائيلية على إتباع عدة مبادئ صهيونية في الاستيطان الإسكاني وفي التشغيل وفق سياسات ثابتة.

وتتركز القوى العاملة العربية في الأعمال الشاقة، التي ينفر منها اليهود، وأما الأعمال المكتبية والخدمية الراقية فتسند إلى الموظفين اليهود. وهناك مؤسسات اقتصادية يحظر على العرب العمل فيها مثل الصناعات العسكرية البرية والبحرية والجوية والإلكترونيات وغيرها. كما إن عدد ساعات العمل التي يؤديها العرب أكثر من تلك المخصصة لليهود.

وحال المؤسسات الاقتصادية ليس بأحسن من هذا الوضع التشغيلي، وهناك مؤسسات يهودية تمنع العمال العرب من التحدث بالعربية أثناء العمل وتجبرهم على التحدث باللغة العبرية. والعرب هم الفئة الأكثر فقرا في المجتمع والأكثر تعرضا للبطالة.

[1]. التمييز المنهجي الذي تمارسه إسرائيل بحق مواطني 48- وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية، تاريخ النشر: 2016/10/27

4. التمييز في التنظيم العمالي النقابي (الهستدروت)، أوقع العرب في متاهات عنصرية كثيرة وخاصة أن هذه المنظمة هي ذات فروع اقتصادية اجتماعية نقابية متشعبة.

وقد اتخذت الهستدروت أربع شعارات يهودية وصهيونية عنصرية، وهي: خلاص الأرض، العمل العبري الصرف، الإنتاج العبري، وأحادية التنظيم العمالي.

التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات الاجتماعية والثقافية:

تتمثل سياسة التمييز الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في عدة مجالات اجتماعية وثقافية هي:

1. التمييز في الإسكان: هدمت المنظمات الصهيونية والحكومة الإسرائيلية مئات القرى الفلسطينية في البلاد لتهجير العرب واستقدام يهود جدد بدلا منهم، فلم يبق من 531 قرية إلا 96 قرية عربية في البلاد جراء الترحيل والطرد الجماعي المتواصل.

وفي المدن الساحلية والمختلطة، تم عزل العرب في إحياء صغيرة وفقيرة ولم تسمح لهم السلطة الإسرائيلية المختصة بترميم بيوتهم رغم أنها آيلة للسقوط. وهناك اكتظاظ سكاني في المدن والقرى العربية، ولم تتم إقامة أية قرية عربية مقابل إنشاء عشرات المستوطنات بتمويل حكومي، والبيوت العربية بيوت بسيطة متواضعة مقارنة بالبيوت الفارهة لليهود.

وتقوم الجهات الإسرائيلية الحاكمة بعملية هـدم جماعيـة للبيـوت العربيـة غير الحاصلة على التراخيص جراء الإهمال والتجاهل الرسـمي الإسرائـيلي بيـنما لا تهدم هذه السلطات بيوتا لليهود.

2. التمييز في التعليم العام والعالي: صدر قانون التعليم الإسرائـيلي عـام 1949م ثم تلاه قانون سنة 1953م، وقد حدد هذا القانون أهداف التعليم الحكومي بإرسـاء الأسس التربوية على القيم اليهودية والـولاء للدولـة اليهوديـة والشـعب اليهـودي، وأمعن في فرض التحكم الحكومي الرسمي في شؤون التعليم العربي العام من خلال الـتحكم والسـيطرة في الخـدمات والـبرامج التعليميـة ووضـع المنـاهج التعليميـة المدرسية التي تهدف إلى طمس معالم الثقافة والحضارة العربية وتكـريس العـادات والقيم اليهودية على العرب.

وأما بشأن طرق تربية الطالب اليهودي فتبنى على كراهية العـرب ووصـفهم بصفات غير إنسانية كالحيوانات والحشرات والنمل والزواحف والمتخلفين والجهلة والقتلة وما إلى ذلك من قـاموس المصـطلحات العنصـرية التـي تنضـح بالكراهيـة والحقد الأعمى ضد العرب.

على أي حال، إن الاضـطهاد الاجتماعـي في التعلـيم العـربي يتمثـل في عـدم الاهتمام الكافي بشؤون التربية والتعليم، فعدد المدارس قليل ونسبة التسرب عاليـة بين الطلبـة العـرب، والمخصصـات المدرسـية بسـيطة لا تسـمح بـالتطور والتطـوير الضروري، كما يتم تشويه صورة الفلسطيني والعربي في المناهج التعليمية. وكـذلك تعتبر اللغة العبريـة هـي اللغـة الرسـمية الأولى إذ يـتم تهمـيش اللغـة العربيـة في

المدارس والمعاهد العليا والجامعات الإسرائيلية، فحتى الأدب العربي يجري تدريسه باللغة العبرية في الجامعات وقد سنت العديد من القوانين لذلك.

وأما بالنسبة للتمييز في التعليم العالي، فهناك سبع جامعات يهودية مقيمة وجامعة يهودية واحدة مفتوحة بينما لا يوجد أي جامعة عربية في البلاد، فالسلطات الإسرائيلية تعارض إقامة جامعة للفلسطينيين وذلك لأسباب سياسية بدعوى أن هذه الجامعة ستكون بؤرة " فتن وشغب ". وهناك ثلاث كليات عربية غير معترف بها رغم استيفائها لشروط الاعتراف مقابل عدة كليات يهودية معترف بها. كما إن عدد الأكاديميين العرب العاملين في الجامعات الإسرائيلية وصل عام 2000م إلى 15 أكاديميا من بين خمسة آلاف أكاديمي يعملون في الجامعات الإسرائيلية. وبالنسبة للحاصلين على تعليم عالي، فقد وصلت عند العرب 3 % مقابل 30 % عند اليهود الغربيين، و6 % عند اليهود الشرقيين في عام 2000م. وفيما يتعلق بقبول الطلبة الفلسطينيين في الجامعات الإسرائيلية فهناك شروط معينة دون زيادة عددهم في الجامعات الإسرائيلية. و مجلس التعليم العالي لا يمثل العرب فيه إلا عضوا واحدا من أصل 30 عضوا[1].

[1]. سياسة التمييز الإسرائيلية ضد الفلسطينيين- أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية مقدمة من الباحث كمال إبراهيم محمد علاونه في عام 2002م من جامعة النيلين، الخرطوم، السودان.

الفصل الثالث

تاريخ النكبة الفلسطينية الكبرى وآثارها البعيدة على المجتمع الفلسطيني والعربي:

ما هي النكبة؟

النكبة هي تعبير عن التهجير القسري الجماعي عام 1948م لأكثر من 750000 فلسطيني من عقر دارهم وبيوتهم في فلسطين، وهذه النكبة تعتبر أكبر نكبة شهده التاريخ العالمي في العصر الحديث. يعتقد معظم الجماهير أن النكبة بدأت في العام 1948م، ولكنها في الحقيقة قد بدأت قبل ذلك بسنوات.

خلفية النكبة:

تشير البيانات أن فكرة إقامة دولة يهودية قد نشأت في أواخر القرن الثامن عشر حينما شن المقاتل الفرنسي الكبير نابليون بونابرت الحرب على العرب عام 1799م، فقد أصدر نابليون بونابرت بيانا دعا فيه إلى إنشاء دولة يهودية في أرض فلسطين. ولكن خطة نابليون لإنشاء دولة صهيونية في فلسطين باءت بالفشل، ونشأت هذه الفكرة بشكل جديد بعد قيام الانتداب البريطاني في فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى[1].

دخلت فلسطين تحت السيطرة البريطانية عام 1917 ووعد آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت بصراحة الدعم البريطاني لإنشاء وطن قومي

[1]. انظر https://interactive.aljazeera.com/aja/palestineremix/al-nakba.html#/17

للشعب اليهودي في فلسطين، ثم قامت حكومة الانتداب البريطانية في عام 1922م، وهذا صك الانتداب البريطاني عام 1922م ثبتت نقطة تحول لصالح اليهود، لأنه يشتمل على المواد والقوانين التي فتحت الباب على مصرعيه أمام اليهود للاستيلاء على قطاعات كبيرة من الأراضي الفلسطينية مثلا المادة الثانية منه تشير "بأن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة وضع البلاد في أحوال اقتصادية وسياسية وإدارية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي. فبدأت القوى البريطانية تنفذ خطة إنشاء دولة يهودية في فلسطين بغاية من السرية والتخطيط تحت ضغط من الحركة الصهيونية، ووفرت كافة التسهيلات اللازمة لمساعدة اليهود على إقامة الوطن القومي في أرض فلسطين، مثلا إن حكومة الانتداب عام 1921م قامت بتغييرات في القانون العثماني الموجود للأرض في ذلك الوقت وهذه التغييرات أعطت اليهود حق الاستغلال على الأراضي المية، كما أعطت حكومة الانتداب الشركات اليهودية المشروعات الكبيرة الاقتصادية ومن أهمها مشروع روتنبرغ الكهربائي، ومشروع البحر الميت ومشروع أراضي الحولة ومشروع العوجا لتوليد الطاقة الكهربائية. وبالإضافة إلى ذلك قامت الحكومة البريطانية بإصدار قانون نزع الملكية في عام 1926م وسنت قانونا جديدا "تسوية حقوق الأراضي في 30 مايو 1928م، كما أصدرت دستور فلسطين المعدل في عام 1933م، ولم تفعل الحكومة البريطانية كل ذلك إلا لتسهيل تنفيذ المشاريع الاقتصادية اليهودية وتسهيل عملية استيلاء الصهاينة على أرض فلسطين[1].

[1]. انظر ملف النكبة الفلسطينية 1947-1948، الجزء الأول، ص 3.

هجرة اليهود إلى فلسطين:

و قد بدأ اليهود يهجرون إلى فلسطين قبل قيام الحكومة البريطانية فيها، وقد سيطرت بعض الشركات اليهودية على الأراضي الفلسطينية قبل ذلك بعقود. يقول أميل توما: "والواقع أن الموجة الأولى من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بدأت قبل قيام المنظمة الصهيونية العالمية أي في 1882م، ولكن قبل ذلك قامت هيئات يهودية في الاستيلاء على الأراضي في فلسطين وإقامة مؤسسات اجتماعية واقتصادية فيها. ولم تتوقف عملية الاستيطان اليهودي الكولونيالي في سنوات التسعين وبعدها من القرن التاسع عشر، وحسب بعض المعطيات أقيمت 32 مستوطنة رزاعية يهودية على مساحة (300) ألف دونم حتى العام 1889[1]. وتشير إحصاء آخر أن عدد المهاجرين الصهاينة قد بلغ خلال الفترة ما بين 1882-1904م إلى 25 ألف مهاجر، بينما بلغ عددهم 40 ألف خلال الفترة 1904-1914م[2]. وقد ارتفع عدد السكان اليهود خلال أربع سنوات من الانتداب من 7% عام 1918م إلى 11% عام 1922م[3]. وأما من حيث الأراضي المملوكة عند نهاية الانتداب فقد تبلغ 1.491.699 دونما أي أقل من 6 في المأة من مجموع أراضي فلسطين.

وواصل الاستعمار البريطاني دعمه لليهود بكافة النواحي، وبالتالي تدفقت نسبة الهجرة اليهودية إلى فلسطين تدفقا هائلا، حتى تحول اليهود من أقلية دينية إلى جماعة له الثقل العددي في فلسطين وزاد عدد اليهود من حوالي 84 ألفا عام 1922م إلى حوالي 650 ألفا في 15 مايو عام 1948م، وأدت تلك الزيادة إلى رفع

---

[1]. أميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص 107.

[2]. انظر ملف النكبة الفلسطينية 1947-1948، الجزء الأول

[3]. انظر ملف النكبة الفلسطينية 1947-1948، الجزء الأول

نسبتهم إلى جملة سكان فلسطين من 11 في المائة إلى 31 في المائة خلال الفترة 1922-1948م، و كما سيطر اليهود على كم كبير من الأراضي الفلسطينية أما شراءا أو غصبا، ورافق ذلك بناء المستعمرات اليهودية بشكل متواصل، حتى بلغ عدد المستعمرات الهيودية من 110 مستعمرة في عام 1927م إلى 291 مستعمرة زراعية حتى عام 1948م[1]. كما قفز الرأسمال الهيودي قفزة واسعة، تشير التقارير أن رأسمال الذي أدخله المهاجرون اليهود إلى البلاد بين الأعوام 1920م حتى 1935م ما يقدر بأكثر من 80 مليون جنيه فلسطيني.

المقاومة الفلسطينية ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني:

لم يشعر الفلسطينيون خطورة الصهاينة إلا بعدما أعلن سلطة الانتداب البريطانية دعمها بصراحة لاستيطان اليهود في فلسطين وجعل اليهود ينسلون إليها من كل حدب زرافات ووحدانا، فبدأ الفلسطينيون مقاومتهم ضد خطورة الصهاينة المحلقة عليهم، قامت انتفاضة أولى ضد تدفق المهاجرين اليهود عام 1921م واستمرت خمسة عشر يوما في مدينة يافا ومدن أخرى تلقائيا، ثم نشبت انتفاضة ثانية كبرى في شهر أغسطس في نفس السنة ضد الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية والاستيطان الصهيوني الجبري عليها، فاضطرت حكومة الانتداب البريطانية إلى تشكيل لجنة برئاسة "ولترشو" للتحقيق في أسبابها، ولكن على الرغم من توصيات لجنة شو، لم يتوقف السيل العارم للمهاجرين الصهاينة. واستمرت الانتفاضات الشعبية وهم يطالبون بسن تشريع لمنع انتقال الأراضي الفلسطينية إلى اليهود وتشكيل حكومة فلسطينية، ولكن الحكومة البريطانية

[1]. آثار النكبة الفلسطينية على الفلسطينيين. http://blog.amin.org/motasem

مازالت تدعم الهجرة الصهيونية وتوفر جميع التسهيلات للاستيطان الصهيوني في فلسطين.

ونظرا إلى سياسات الحكومة البريطانية المحايدة أدرك الشعب الفلسطيني أن السبب الأصلي وراء تدفق هجرة اليهود إلى فلسطين هو الإنجليز، فقام كبار الزعماء الفلسطينيين بعقد مؤتمر في 26 مارس 1933م وأعلنوا فيه المقاطعة التامة وعدم التعاون مع حكومة الانتداب، وفي 27 أكتوبر في نفس السنة، قرروا بالإضراب العام في البلاد وقاموا بعقد مظاهرات في مختلف أنحاء البلاد، استشهد خلال ذلك 26 فلسطينيا وجرح حوالي 187 فلسطيني[1].

وبينما آثرت القيادة الفلسطينية على متابعة المفاوضات مع بريطانيا لحل النزاع، دعا عز الدين القسام (زعيم سوري) إلى الكفاح المسلح ضد الصهاينة والاستعمار البريطاني، فلبى دعوته الشباب المتحمسون ولكن قوى الاستعمار البريطانية حاصرت عز الدين القسام وأصحابه وقتلوه شر قتلة[2].

وأثرت هذه الحادثة المؤلمة تأثيرا بالغا في العرب عامة والفلسطينيين خاصة وازداد غضبهم ضد سياسات حكومة الانتداب والاستيطان الصهيوني، وقاموا بثورة عظيمة تسمى بـ"ثورة 1936م، نشبت هذه الثورة العارمة في شهر أبريل 1936م في كل ناحية من نواحي البلاد، ووقعت أثناء ذلك اشتباكات عنيفة بين الشعب الفلسطيني في جانب وقوى الانتداب البريطانية واليهود في جانب آخر، ذهب ضحيتها ما يزيد عن 1000 شهيدا عدا الجرحى والمعتقلين، وطبقا لإحصاء بلغت خسائر العرب المادية أكثر من 30 مليون جنيه استرليني.

---

[1]. انظر ملف النكبة الفلسطينية 1947-1948م الجزء الأول.

[2]. انظر تغطية الجزيرة، Nakba: Interactives

شكلت الحكومة البريطانية لجنة "لورد بيل" إثر هذه الثورة، وأوصت اللجنة بإنهاء الانتداب في فلسطين على أساس تقسيمها إلى دولتين: عربية ويهودية، ولكن العرب رفضوا هذا التقسيم رفضا باتا وطالبوا بإنشاء دولة مستقلة، وفي السنوات التالية، زادت المظاهرات والانتفاضات الشعبية ضد الصهاينة وحكومة الانتداب مما أجبرت الحكومة البريطانية إلى تحديد عدد هجرة اليهود إلى فلسطين، وهذا امتعض اليهود فجعلوا يهجمون على القوى البريطانية لإخراجهم من أرض فلسطين، ثم نشبت الحرب العالمية الثانية، انتهز اليهود بهذه الفرصة واقنعوا الولايات المتحدة الأمريكية لتوجيه سياستها في الشرق الأوسط إلى مصلحتهم، فعملت الحكومات المتتالية للولايات المتحدة الأمريكية في صالح الهيود خالصة، وأعلنت بعدم الموافقة على سياسة الكتاب الأبيض لعام 1939 مطلقا وفتح فلسطين للصهاينة. وفي عام 1946م تشكلت اللجنة الانجلو أمريكية، وأوصت اللجنة بإقامة حكومة فيدرالية وتقسيم البلاد إلى أربع مناطق، ولكن العرب رفضوا هذا المشروع كما رفضه الصهاينة.

ودخلت هذه قضية فلسطين طورا جديدا حينما تداخلت الأمم المتحدة في القضية عام 1947م تحت الضغط من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، شكلت المنظمة الدولية بلجنة خاصة تشتمل على إحدى عشر دولة، للتحقيق حول قضية فلسطين، وانتهت اللجنة إلى نتيجة بأن تقسم البلاد إلى دولتين: دولة يهودية مع 56% من البلاد مع أنهم لا يملكون إلا 8% من الأراضي الفلسطينية، دولة فلسطينية حوالي 43% من البلاد. رفض العرب هذا التقسيم غير العادل لأنه كان ذلك خرقا لنصوص ميثاق الأمم المتحدة صراحة. وتم التصويت على المشروع، وبذلت الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية مع حلافائها قصارى جهدها

للحصول على أصوات ثلثي أعضاء الجمية العامة للأمم المتحدة، وأخيرا قررت الجمعية العامة في 29 نوفمبر 1947م تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية بناء على التصويت في المشروع بغض النظر على حقوق الشعب الفلسطيني[1].

الحرب بين العرب والصهاينة:

ويتضح من البيان المذكور أن هذا التقسيم كان مخالفة صريحة لميثاق الأمم المتحدة ومبادئ العدل والحقوق. وساد جو من القلق والتشاؤم في جميع الدول العربية بعد صدور هذا التقسيم، وقامت مظاهرات صاخبة في البلاد العربية كلها، ولم يبق أمام العرب والشعب الفلسطيني بعد هذا التقسيم غير العادل إلا سبيل الحرب والمقاومة ضد الصهاينة. فاجتمعت جامعة الدول العربية وقررت الخضوع في المعركة مع أعضاءها باستعدادها الكامل وشكلت جيش الإنقاذ في الكانون الأول 1947م بقيادة فوزي القاوقجي من دمشق، ولكن هذا الجيش كان يفتقر القيادة السليمة والانضباط العسكري الحازم وقلة الأسلحة والمعدات الحربية، فأدى ذلك إلى تشتت شمل الجيش. ثم أنشئت قوات الجهاد المقدس في 25 ديسمبر1947م بالتهيئة العربية بقيادة عبد القادر الحسيني وقاومت قوات الجهاد المقدس بغاية من الحماسة والبطالة القوات الصهيونية وحققت انتصارا تلو انتصار، ولكن من سوء حظ فلسطين أن القائد العظيم عبد القادر الحسيني استشهد في معركة القسطل التي قتل فيها أكثر من 400 جندي يهودي.

[1]. انظر تغطية الجزيرة، Nakba: Interactives

ثم أعلن دافيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين في 14 مـايو 1948م وقام بتشكيل حكومة موقتة، وانتهت حكومة الانتداب البريطانية وسحبت قواتها العسكرية في فلسطين في 15 مايو 1948م تاركة معداتها الحربيـة فيهـا طبقـا لقرار لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسـطين، وانتهـزت الحركـة الصـهيونية بهـذه الفرصة وقبضت على جميع الأسلحة، ودخلت الجيـوش العربيـة في ليلـة 16 مـايو 1948م من مصر والأردن وسوريا ولبنان في مختلـف أنحـاء فلسـطين فـور خـروج القوات العسكرية البريطانية منها. واستمرت مقاومات عنيفـة أسـبوعين كـاملين، وتكاد تنتصر الجيوش العربيـة حتـى ظهـرت بريطانيـا في مسـاعدة اليهـود بصـورة جديدة و طالبت من مجلس الأمن بوقف القتال لمدة أربعة أسابيع بناء على الإغاثـة من اليهود المحصورين.

وخلال فترة الهدنة قامت القوات اليهودية بتوحيد شملها كما تلقت معـدات حربية كثيرة من الخارج، واستأنف القتال في شهر يونيو 1948م، ولكن الوضـع قـد تغير، وفي نفس الوقت تشتت شمل الجيوش العربية حيث انسحب الجـيش الأردني والعراقي فجأة من المعركة، وبالتالي سيطرت القوات اليهودية في منـاطق كثـيرة، ولم تطل أيام القتال حتى فرضت هدنة ثانية في 10 يوليـو 1948م. واسـتفاد اليهـود مـن كل هدنة وسيطروا على مساحات كثيرة من الأراضي الفلسطينية أثناء الهدنة أيضـا ضاربين بالهدنة عرض الحائط وواصلوا حملات التطهير العرقي ضد الفلسـطينين، وكانت رسالتهم واضحة، أما أن يغادر الفلسطينيون أراضيهم أو سـنقتلهم.[1] وطبقـا

[1]. انظر تغطية الجزيرة، Nakba: Interactives

لتقرير تحول أكثر من 750000 مواطن فلسطيني إلى لاجئ، بينما قتل أكثر من 13000 آخرين على أيدي القوات الإسرائيلية[1].

ونظرا إلى الانتهاكات الصريحة للقوات الإسرائيلية، قامت الأمم المتحدة بتعيين الدبلوماسي السويدي فولك برنادوت وسيطا لها في فلسطين، وحاول برنادوت محالة حثيثة وتوصل إلى حل سلمي لإيقاف حملات التطهير الصهيونية، ولكن من سوء حظ الفلسطينيين اغتاله الصهاينة في أيلول عام 1948م. ثم ترأس رالف بنش الأمريكي المفاوضات بين الطرفين، ولكنه أدى ذلك إلى تنازل مزيد من الأراضي الفلسطيني.

آثار النكبة على الشعب الفلسطيني:

الحروب والنزاعات المسلحة تسببت إلى كثير من المآسي والتهجير القسري، وأدت إلى الاقتلاع الجزري وتغييرات سلبية هائلة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمهاجرين. وما يكون أكبر نكبة ومأساة من نكبة فلسطين، وهي تعد من أكبر قضايا التهجير القسري التي شهده التاريخ لأن المهاجرون الفلسطينيون يمثلون حالة التهجير القسري الأكبر حجما اليوم من حيث العدد والمدى الزمني على مستوى العالم، ومن الأسف الشديد أن دول العالم حتى الآن لم تستطع التوصل إلى حل ناجح لقضية فلسطين.

وهذه حقيقة ناصعة أن النكبة لـ1948م أثرت تأثيرا بالغا على الشعب الفلسطيني من حيث الاقتصاد والسياسة والاجتماع، وذهبت بهم إلى بوتقة الفقر

[1]. انظر ملف النكبة الفلسطينية 1947-1948، الجزء الأول.

والذل والحرمان حرمتهم حتى من ضروريات الحياة وجعلتهم يتيهون في مختلف أنحاء الدول العربية وأوربا ويستغيثون مع أفراد أسرتهم وأطفالهم الصغار.

وقبل ان نتطرق إلى التفصيل في البيان عن المهجرين الفلسطينيين، يجدر بنا الإشارة إلى أن هناك توجد مجموعتان من الفلسطينيين المهجرين هما: مهجرو 1948م، وهم الجزء الأكبر من المهجرين الذين بقوا داخل إسرائيل، وتم تهجيرهم في أثناء النكبة في سنة 1948م، ويطلق عليهم القانون الإسرائيلي تعريف "الغائبين الحاضرين. أما المجموعة الثانية وهم مهجرو ما بعد سنة 1948م وهم الذين هجرتهم أسرائيل في أعوام متعدة بعد قيامها في عمليات طرد داخلي أو طرد إلى خار ج حدود دولة إسرائيل[1].

تشير المعطيات أن عملية إنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين منذ بداية حكومة الانتداب البريطانية إلى نهايتها في عام 1948م أدت إلى 18 مجزرة ذهب ضحيتها 300 شهيد من الفلسطينيين، وتم طرد نحو 850 ألف فلسطيني من ديارهم خلال عامي 1947م و 1948م. ووفقا للمعطيات ارتكبت العصابات الصهيونية في عام 1948 (44) مجزرة هائلة بمساعدة بريطانيا ضد الفلسطينيين ذهب ضحيتها 2500 شهيد، وتجدر الإشارة إلى أن من بين 531 قرية فلسطينية تم تهجير أهلها في عامي 1947م و 1948م، فإن هناك 90 في المائة من تلك القرى نزح أهلها عنها بسبب عسكري يهودي صهيوني و 10 في المائة تحت الحرب النفسية و إيحاءات بتوقع هجوم قادم[2].

[1]. تأثير النكبة في مكانة النساء المهجرات، همت زعبي، مجلة الدراسات الفلسطينية، 2013، ص 112.

[2]. آثار النكبة الفلسطينية على الفلسطينيين. http://blog.amin.org/motasem

وبالجملة إن النكبة سببت إلى تهجير 60.5 في المائة من اجمالي مجموع الشعب الفلسطيني خارج دياره، ثم تم طرد نحو 460 ألفا من السكان الفلسطينيين بعد عام 1967م واحتلال الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، ولم يقف التهجير القسري في السنوات التالية، تشير معطيات المجموعات الإحصائية الصادرة عن مكتب الإحصاء الفلسطيني في دمشق بأن مجموع الشعب العربي الفلسطيني قد وصل إلى 4566153 فلسطينيا في عام 1981م وارتفع ذلك إلى 5630610 في عام 1990م. وما زال عدد الذين تأثروا من التهجير القسري يزداد على مر العصور حتى وصل عددهم حوالي 9.5 مليون فلسطيني في عام 2005[1].

إذا نتكلم عن التوزع السكاني للفلسطينيين، فتشير الإحصائيات أن 45.5 في المائة من مجموع الفلسطيينين يسكنون في داخل أرضهم في الخط الأخضر- والضفة الغربية وقطاع غزة، بينما يسكن حوالي 54.4 في المائة من الفلسطينيين من المجموع العام لتعداد الشعب الفلسطيني خارج فلسطين في سوريا ولبنان، والأردن ودول أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وغير ذلك من دول العالم، وتجدر الإشارة إلى أن الأردن أصبح أكثر الدول والمناطق التي يتركز فيها فلسطينيون بعد عام 1967م.

[1]. نفس المصدر

الباب الثاني: لمحة تعريفية بروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" وكاتبها ومنهجها الفني

الفصل الأول: تعريف موجز بالروائي "ربعي المدهون"

الفصل الثاني: دراسة موضوعية لروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على رواية "مصائر"

الفصل الثالث: دراسة فنية لروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على رواية "مصائر"

الفصل الأول

تعريف موجز بالروائي "ربعي المدهون"

ربعي المدهون:

هوكاتب وروائي وصحفي فلسطيني. ولدفي مدينة المجدل قرب مدينة عسقلان، جنوب فلسطين عام 1945، وهاجر هو وأسرته خلال النكبة عام 1948م إلى خان يونس في قطاع عزة وسكنت في مخيم للاجئين حيث نشأ وتربى. وحصل تعليمه من الإبتدائية إلى الثانوية في مدارس خان يونس، ودرس التاريخ في جامعة الإسكندرية ولم يحصل على الشهادة الجامعية لأنه أبعد عن البلاد لأسباب سياسية، في عام 1970م في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعد خلافات بين القاهرة وبين منظمة التحريرالفلسطينية والفصائل الأخرى على خلفية طرح "مبادرة روجرز للسلام" التي وافق عليها ناصر وبسبب انتقادات حادة وجهت لمصر وقتها، جرى اعتقال 70 طالبا فلسطينيا ينتمون لجبهة التحرير، وكان من بينهم المدهون الذي تم ترحيله إلى دمشق بعد توقيفه ليومين. منذ حينه عمل بالصحافة من سنة 1973م. بعد أن حمل بساط الغربة والشتات إلى كل من عمان ودمشق وبغداد وموسكو وبيروت ونيقوسيا، وسافر لأجل العمل اليمن، وتونس، وليبيا، وتركيا، وايطاليا، وفرنسا، والنمسا، وهنغاريا، والولايات المتحدة الأميركية، واسبانيا، حتى استقر أخيرا في لندن وأخذ الجنسية البريطانية. وهو أول روائي فلسطيني فاز بجائزة "البوكر العربية" التي تعد من أبرزالجوائز الأدبية في العالم العربي وقيمتها 50 ألف دولار أميركي. ونال الجائزة العالمية للرواية العربية "بوكر العربية" 2016 في دورتها التاسعة وذلك خلال الحفل الذي نظم في فندق

فيرمونت باب البحر في العاصمة الإماراتية أبوظبي، عشية افتتاح الدورة 26 لمعرض أبوظبي الدولي للكتاب.

عمل ربعي المدهون محررا وكاتبا في صحف ومجلات منذ سنة 1975م منها الحرية، والأفق، وصوت البلاد، والقدس العربي، والحياة، وفي الشرق الأوسط ومازال محررا فيها، وعمل في مركز الأبحاث الفلسطيني بين أعوام 1986 و 1993م، وكذلك في وكالة أنباء التلفزيون العالمي (WTN) و وكالة أنباء أمريكية اسوشيتد برس (APTN)، للأخبار المصورة أيضا.

حياته الأدبية:

بدأ الكاتب الفلسطيني ربعي المدهون حياته الأدبية من القصة، ثم انقطع لفترة طويلة، قبل أن يعود بروايتين، نالتا قبولا عظيما وشهرة فائقة في العالم الأدبي والعربي، خاصة روايته الأخيرة "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة.

وله ثلاث روايات إضافة إلى دراسات ومجموعة من قصصية. "السيدة من تل أبيب" (رواية، سنة 2009م) التي وصلت إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام 2010م. وقد تمت ترجمتها إلى الإنجليزية بيد المستشرق والمترجم الأميركي المعروف البروفيسور إليوت كولا، ونشرت عن "تلغرام بوكس" البريطانية[1]. والترجمة الإنجليزية أيضا فازت بجائزة بان البريطانية للكتب المترجمة. وفي سنة 2016م، صارالمدهون أول روائي فلسطيني يفوز بالجائزة العالمية

[1]. https://www.addustour.com/articles/469915

للرواية العربية (البوكر)، وذلك عن روايته "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" (رواية، 2015) وتقع الرواية في 267 صفحة من القطع المتوسط.

ومن أعماله:

1. أبله خان يونس (مجموعة قصصية، 1977)،
2. وطعم الفراق: ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة (رواية سيرة ذاتية، ط1 سنة 2001، ط2 سنة 2011).
3. والسيدة من تل أبيب (رواية، 2009).
4. ومصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة (رواية، 2015).

آراء الأدباء حول الكتاب:

قالت الكاتبة والناقدة الإماراتية أمينة ذيبان، التي قامت برئاسة لجنة التحكيم، أن رواية مصائر"تبتدع نسيجا روائيا فنيا جديدًا يصور تحولات المسألة الفلسطينية". وتثير"مصائر" أسئلة الهوية وتستند إلى رؤية إنسانية للصراع. وتقول ذيبان إن "مصائر" تعد الرواية الفلسطينية الشاملة. فهي ترجع إلى زمن ما قبل النكبة لتلقي ضوءًا على المأساة الراهنة المتمثلة في الشتات والاستلاب الداخلي. إنها رواية ذات طابع بوليفوني مأساوي تستعير رمز الكونشرتو لتجسد تعدد المصائر"[1].

وكتب ربعي المدهون روايته الثالثة "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2015) وفي ذهنه ثلاثة أشياء رئيسية متداخلة: التجريب الأدبي، ومعنى العودة في سياقها الفلسطيني، وتجربته الشخصية.

[1]. http://ara.reuters.com/article/entertainmentNews/idARAKCN0XN28N

وفي محور التجريب، هناك محاولة مستمرة عند المدهون للهروب من المعالجات التقليدية للرواية الفلسطينية، بناء وسردًا ومحتوى، متأثرا بأساليب أعمدة الأدب الفلسطيني الحديث كإميل حبيبي وغيره، متجهًا هنا إلى منحى ما بعدحداثي في نصه الأدبيّ، في تأكيده على شرعية أسئلة الهوية الفلسطينية المعاصرة والمتداخلة. هيكليًا يبني المدهون أحداث روايته وتحركات الشخصيات داخلها في مقاربة لشكل "الكونشرتو" في الموسيقى الكلاسيكية الغربية، لكن في أربع حركات بدلًا من ثلاث كما هو معتاد في التأليف الموسيقي، وإن كان هناك كونشرتو من أربع حركات، تقوم على شخصيتين رئيسيتين في كل حركة، تقدم سرده الروائي من زوايا مختلفة ومتداخلة.

وفي الرواية ابتعاد واضح عن البكائيات السردية الفلسطينية التقليدية لصالح سرد يستعيد التاريخ، ولا يخلو من تساؤلات مبطنة بسخرية سوداء، قد تُحضر إلى الذهن مقاربة سينمائية مع المخرج الفلسطيني إيليا سليمان وأسلوبه في التعليق الصامت على عمله بظهوره في الفيلم، وهو ما يفعله المدهون في الحركة الثالثة من الرواية، كنوع من استخدام بسيط وسريع لأداة "إدراج النفس" الأدبية، خدمة لقصٍ ما ورائي على لسان شخصية الراوي الأساسي من جهة، الذي يعي في الحركة الثالثة أنه شخصية في روايات المدهون، ومن جهة أخرى متمثلة في رواية "فلسطيني تيس" التي تظهر في الحركة الثانية، التي تكتبها شخصية "جنين دهمان" عن «محمود دهمان»، والدها وشخصيتها المتخيلة الفلسطيني التيس "باقي هناك"، في الآن ذاته.

من ناحية أخرى، هناك اعتناء بالخيال دون أن يكون على حساب التاريخ نفسه، طارحًا أسئلة مشروعة عن الواقع المعاصر في محور المدهون الثاني، العودة ومعناها، متفاعلًا أيضًا مع المحور الشخصي، أي مع عودة الروائي (ربعي المدهون) بشخصية الراوي (وليد دهمان) مرة أخرى بعد "السيدة من تل أبيب": الروائي الفلسطيني المهجر الذي استقر في بريطانيا لاحقًا وحمل جنسيتها. في حين عاد وليد دهمان إلى غزة في الرواية الأولى، يعود هذه المرة إلى فلسطين بصحبة زوجته "جولي" البريطانية اليهودية، لتحقيق وصية "إيفانا" (والدة جولي)، الأرمنية الفلسطينية التي ولدت في عكا قبل أن تهاجر إلى بريطانيا بعد زواجها من الضابط البريطاني "جون ليتل هاوس" إبان النكبة، والمتمثلة في أخذ بقايا رماد جثتها لتعود إلى عكا، بعد أن نثر نصف رمادها في هواء لندن فوق نهر التايمز. وأيضًا اقتراح جولي لوليد الانتقال إلى عكا والاستقرار فيها[1].

رواية ناضجة تعيد تمثل سيرة المآسي والأشجان الفلسطينية وتستعيد عبر أربع حركات بنائية تماثل حركات الكونشرتو الموسيقي، مصائر وتقاطعات شخصيات فلسطينية تحاول الانفلات من أسر الواقع الجاثم وتروي عبر حكايا وسرود محكمة تم تضفيرها ببراعة داخل المتن الروائي وفق تصور محكم منضبط ما مر بالإنسان الفلسطيني، منذ نكبة 48 وحتى الوعي بها وآثارها بوعي الحاضر وتأملات راكمتها التجارب.

[1]. https://www.7iber.com/culture/arabic-booker-shortlist-rabai-al-madhoun/

الفصل الثاني

دراسة موضوعية لرواية "مصائر"

إن رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" للروائي ربعي المدهون رواية تدور حول النكبة الفلسطينية، وقضاياها الهامة، والهوية الضائعة المفقودة بين الغربة والعودة، وبين أن تعيش فلسطينيا أو إسرائيليا، ومواطنا أو مهاجرا. ورواية"مصائر" ألفت على نهج كونشرتو(موسيقي من أربع حركات). هي أربع حكايات منفصلة تماما عن الآخرين، ومتداخلة ومتشابكة ومتصلة تماما.

صدرت رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" المشتملة على 267 صفحة، أول مرة في 2015 ومنذ طباعتها الأولى نالت الرواية بقراءات شتى وباتت بمضي الوقت إحدى أبرز الروايات التي كتبت حول نكبة فلسطين. وتم الإختيار من بين 159 رواية عربية التي تنافست للجائزة البوكر من بلد عربي، وأعلن عن الجائزة القيمة يوم الثّلاثاء، 26 نيسان (أبريل) 2016، في حفلة عقدت بمدينة أبو ظبي الإماراتيّة، وتبلغ قيمة الجائزة 50 ألف دولار أمريكي إضافة إلى ترجمة العمل للغة الإنكليزية. ويتم منح إعطاءها سنويا من قبل هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة في الإمارات العربية المتحدة بالاشتراك مع مؤسسة جائزة بوكر البريطانية للكتابة العربية الإبداعية.

وكانت رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" من بين ست روايات عربية التي بلغت القائمة القصيرة في سنة 2016م للجائزة البوكر العربي العالمية. وترشحت خمس روايات اخرى للجائزة وهي "نوميديا" للروائي المغربي طارق بكاري

و"عطارد" للروائي المصري محمد ربيع و"مديح لنساء العائلة" للـروائي الفلسـطيني محمود شقير و"سماء قريبة من بيتنا" للـروائي السـوري شـهلا العجـيلي و"حـارس الموتى" للروائي اللبناني جورج يرق.

وقد قامت برئاسة لجنة تحكيم جائزة البوكر أمينة ذيبان، والصحافي الشاعر المصري سيد محمود والأكاديمي المغربي محمد مشبال والناقـد اللبنـاني عبـده وازن والمترجم منيرمويتش من البوسنة. وترعى هـذه الجـائزة (مؤسسـة جـائزة بـوكر) في لندن بينما تقوم هيئة أبوظبي للسياحة والثقافـة في الإمـارات بـدعمها ماليـا. وقـد علّقت أمينة ذيبان نيابة عن لجنة التحكيم على الرواية الفـائزة في الحفلـة بقولهـا: "تبتـدع روايـة "مصـائر" نسـيجا روائيـا فنيـا جديـدا يصـور تحـولات المسـألة الفلسطينية، وتثير أسئلة الهوية وتستند إلى رؤية إنسانية للصـراع" وقـال رئـيس مجلس أمناء الجائزة ياسرسليمان ان روايـة المدهون"تسـتقي تموجاتهـا مـن عـالم الموسيقى، لكنها لا تلبث أن تتخطى هذا العالم في حركـة تجمـع الشيء وتقيضـه، حيث يتقاطع الداخل مع الخارج في التجربة الفلسطينية من خلال إيقـاع الشـتات والعودة". وأضاف سليمان " ينحت ربعي المدهون عوالمه الروائيـة بحرفيـة تخاطـب القارئ بصوت آسر ليضيف ألقاً متجدداً إلى جائزة تتبـوأ مركـز الصـدارة في المشـهد الروائي العربي"[1].

وقال صاحب الرواية من منصة التكريم: إن "فلسطين من حقهـا أن تفـرح، وهـي الآن تفـرح، وعنـد عودتنـا سـنقيم مهرجانـاً في حيفـا للاحتفـال". وذكـر في تصريحات صحافية أنه يؤمن "بالعيش المشترك سبيلا وحيدا لوضع نهاية لصراع دام

[1]. http://www.arabicmagazine.com/arabic/ArticleDetails.aspx?Id=5030

ومؤلم امتد مائة عام"، مضيفا: "لكنني لا أرى أن هذا سيحدث في جيلي، لكنه سيحدث ذات يوم"[1].

وتعدُّ "مصائر" الرواية الفلسطينية الشاملة، وترجع إلى عهد ما قبل النكبة 1948م لتلقي ضوءا على المأساة الراهنة المتمثلة في الشتات والاستلاب الداخلي. وهي رواية ذات طابع بوليفوني مأساوي، وتأخذ رمز الكونشرتو لتجسّد تعدّد المصائر[2]. يمارس الروائى الفلسطينى فى روايته "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة"، أكثر من لعبة سردية ذكية: يوهمك طوال الوقت أنه يحكى قصة عن رحلة سياحية تستغرق عشرة أيام فى عدة مدن فلسطينية، بينما هو يقدم لنا رحلة أعمق فى الزمان والمكان والإنسان معا، يوهمك بأنها رواية عن الشتات الفلسطينى بعد قيام إسرائيل من خلال نماذج إنسانية اغتربت وهاجرت وطنها وأرضها، بينما هو يحكى عن الباقين هناك، وعن حلم العودة التى ستكون فى يوم من الأيام، وخلال قرأءة الرواية يوهمك بأن الرواية عن قسوة الحياة تحت الاحتلال الإسرائيلى، الحاضر بجنوده وأسلحته وأوراقه وتصريحاته فى كل مكان، بينما هو ينقل إليك حضورا فلسطينيا طاغيا ومكتسحا من خلال الشخوص والحكايات واللهجة والأغانى والطعام والشراب، والبيوت والأماكن التى لو تكلمت لبادلت العائدين شوقا بشوق، وسعادة بسعادة. وحبكتها المحورى للرواية هو عودة وليد أحمد دهمان الفلسطينى الحامل على الجنسية البريطانية، مع زوجته جولى جون ليتل هاوس لتنفيذ وصية حماته الفلسطينية الأرمنية إيفانا أردكيان، بنثر رفاتها بين بيتها القديم فى عكا، وكنيسة القيامة فى القدس. وهذه الوصية تكتسب دلالات

[1]. www.emaratalyoum.com/life/culture/2016-04-27-1.891900
[2]. http://alwatan.com/details/97958

أعمق عندما تنفتح على عالم بأكمله لشخصيات فلسطينية تمسكت بالبقاء فى مدنها، رغم المعاناة اليومية، وتنفتح على دلالة رمزية واضحة، هى التعبير عن فكرة العودة والبقاء حياة وموتا، وأن يرجع الفلسطينى المشتت إلى وطنه من كل مكان، وبكل صورة من الصور.

وإبان عشرة أيام ستكرر التاريخ بكامله، وأعطت المكان والزمان والحلم والماضي والحاضر وجيل النكبة وجيل النكسة وجيل الإنتفاضة وما بعد الإنتفاضة والجغرافيا ألوانها، ورسمت معالم المقاومة بالبقاء، عشرة أيام صنعت رواية مدهشة ومعجبة تستحق جائزة بوكر، وتستأهل صيتها، لتعبيرها عن فكرتها بذكاء، ولمزجها الخاص والعام والإنسانى، بطريقة فنية بارعة. يصور تحولات المسألة الفلسطينية وتثير أسئلة الهوية وتستند إلى رؤية إنسانية للصراع وتلقي الضوء على المأساة الراهنة المتمثلة في الشتات والاستلاب الداخلي.

اختار ربعى المدهون في روايته أن يكون الحبكة فى شكل يحتذى نهج الكونشرتو الموسيقى، ويريد أن يتحدد شكل الكونشرتو بحوار بين آلة منفردة والفرقة الموسيقية، أو آلتين على أن تعمل الفرقة الموسيقية كخلفية لعزفهما، والكونشرتو يكون عادة فى ثلاث حركات، ولكن روايتنا مختلفة عن ذلك، لدينا أربعة أجزاء تماثل حركات أربع موسيقية، ولدينا صوتان رئيسان فى كل جزء/ حركة، ولكن هناك استطراد واضح فى السرد فى كل جزء مما يبعدنا بشكل كبير عن استحضار شكل الكونشرتو كتابة أو موسيقى.

النماذج التى قدمها الروائي ربعي المدهون في الرواية مؤثرة: إيفانا الجدة الفلسطينية الأرمنية تحب أن يدفن نصف هنا (فى بريطانيا)، ونصف آخر هناك (فى ساحة عبود فى عكا وفى كنيسة القيامة بالقدس)، وجنين التى درست فى أمريكا،

اختارت أن تعود إلى يافا، وأن تظل فيها، رغم معاناة زوجها باسم الفلسطينى الـذى يحمل الجنسية الأمريكية، من عدم حصوله على تصريح بالعمـل فى إسرائيـل. هـى فلسطينية تحمل الجنسية الإسرائيلية، وهو فلسطينى يحمل الجنسـية الأمريكيـة، وهما معا غرباء فى أرضهما، توحدهما الغربة ويفرقهما الوطن.

أما محمود دهمان فقد رفض أن يبقى فى المخيمات، تـرك أسرتـه وعـاد ليبـدأ من جديد، حمل لقب "الباقى هناك"، وحصل على الجنسـية الإسرائيليـة، إذا كـان ذلك سيجعله فى أرضه، شيوعى حلم يوما بالعـدل سياسـة واقتصـادا، يظهرمحمـود أيضا فى الرواية التى تكتبها جنين، يحمل لقب "الباقى هنـاك"، لا تختلـف صـورته كثيرا عن واقعه، ربما تختلف النهايـات، ولكـن مغـزى الشخصـية يقـدم نموذجـا للمتمسكين بالأرض.

توسـع الروايـة أفـق الرؤيـة بـالربط بـين الهولوكوسـت اليهـودى والنكبـة الفلسطينية، لا يسير الخطان معا كما يوحى عنـوان الروايـة، إذا أن الهولوكوسـت يستدعى فقط من خلال شخصية فى رواية جنين اسمها أفيفا، وهـى جـارة "البـاقى هناك"، إنها امرأة تطاردها ذكـرى مذبحـة بـابى بـار فى كييـف الأوكرانيـة فى العـام 1941، تصرخ ليلا مستحضرة المحرقة، تطرد أولادها وتعيش وحيدة، ويتعاطف معها "الباقى هناك". ثم يحضرالهولكوست عنـدما يـزور وليـد متحـف الهولكوسـت فى القدس (يد فشم)، هناك يرى الضحايا الفلسطينيين فى صورالضحايا اليهود، ويقول لنفسه: "حقا تتساوى الضحايا من الأموات عندما تتساوى حقوق الأحياء"، بـل إن وليـد يتخيـل، فى أذكى أجـزاء الروايـة، مسـتقبلا يقـام فيـه متحـف آخـر للـذاكرة الفلسطينية أمام متحف الهولوكوست، بعد مصالحة تاريخية قادمة تنهى الصـراع بأكمله.

تحضر تفاصيل مذبحة دير ياسين المروعة كجزء أساسى من المشهد، بعد محاولات الإخفاء والتعتيم، دير ياسين لم تعد سوى خرائب وأطلال خرساء فى الواقع، ولكن المتحف المتخيل سيعيدها، يقول وليد لمرشدة المتحف المتخيل الإسرائيلية: "إن لم تفهمى ما حدث فى دير ياسين وتحفظى درسه جيدا، لن يفهم الآخرون ما جرى للضحايا فى يد فشم"، متحف مقابل متحف، والإنسانية لا تتجزأ أبدا.

ولا يكتفى ربعى المدهون بأن يرتدى أقنعة الشخصيات التى يحكى عنها، ولكنه يجعل بطل روايته "مصائر" هو نفسه بطل رواية "امرأة من تل أبيب"، التى كتبها ربعى من قبل، ثم يأخذ ربعى خطوة أبعد عندما يشاهد وليد شخصا مثل ربعى المدهون بالضبط فى مطار بن جوريون باللد، يترك الشخص صحيفة القدس، وفيها مقال كتبه المدهون بالفعل عن توقيفه فى القاهرة، تمنح هذه اللعبة الرواية إضافة مدهشة، تكسر الإيهام، وتجعل من ربعى المدهون بطلا مشاركا للأبطال، وليس مجرد صانع لهم، إنه جزء من مأساة وطنه وشخصياته، وليس فقط مجرد راو عليم بالحكاية من خارجها، إنه شريك الوقوف فى الطوابير، وشريك الصبر على رذالة رجال الأمن، وهو قبل كل ذلك شريكهم فى الإصرار على العودة، رغم اغترابه فى خارج فلسطين، وبطله وليد يمثله إلى حد كبير، فى مشروعه الروائى الطويل عن فلسطين، ولذلك يتكرر ظهور وليد فى "مصائر" بعد "السيدة من تل أبيب"، ليستكمل ما بدأ، وينوب عنه فى السرد، أو فلنقل إنه مندوب المؤلف فى رواياته.

ينحاز المدهون فى "مصائر" إلى القابضين على الوطن، كالقابضين على الجمر، ينحاز إلى "الباقين هناك" من دون هجرة، مثلما ينحاز إلى الذين يعودون رغم الظروف الصعبة، تتراوح لغته بين شاعرية عذبة، وتقريرية صحفية مباشرة، لا

يريد أن يفلت لونا أو رائحة أو حركة، فى عباراته حس ساخر مدهش ولافت، لا يريد الروائى أن يترك واقعة فى وطنه الحاضر، من جرائم الشرف (التى تستحق ربما رواية مستقلة)، إلى برنامج "سفينة نوح" الذى أضحك أطفال المخيمات فى غزة، من تفاصيل البيوت والشوارع ومسجد قبة الصخرة وكنيسة القيامة، إلى طعم السمك والكعك بالسمسم والزعتر والكنافة.

هذه عين عاشق ترى الجمال الفلسطينى رغم الاحتلال: "عند مدخل سوق خان الزيت، استقبلتنا فلاحات جئن من القرى المحيطة بالخليل، تسللن، كالعادة، من طرق التفافية بعيدا عن الجيش الإسرائيلى، هربن أنفسهن وروائح النعناع والزعتر والنباتات الخضراء الأخرى بعيدا عن أنظار الجنود وأنوفهم، ونشرنها فى كل مكان مررن به فى المدينة، بدت السوق حين عبرناها مطرزة بالفلاحات، وهن مطرزات بأثوابهن، وأثوابهن بحرير بلدى"[1].

فى رواية يحمل فيها محمود دهمان الجنسية الإسرائيلية، ولكنه يطلق على أولاده أسماء مثل "فلسطين" و"غزة" و"جنين"، ويحجز فيها الكاتب الفلسطينى المغترب خالد عيسى طاولة فى مطعم فى يافا تظل باسمه حتى يأتى لزيارة وطنه، ويقول فيها وليد إن إسرائيل مرحلة عابرة فى تاريخ فلسطين، وتطالب فيها جولى بضرورة أن تعود مع زوجها وليد نهائيا إلى أرض فلسطين، ويبدو فيها رماد الأم وسيلة لبعث الابنة وزوجها، يصبح من الأرجح أن يختار وليد القرار المناسب والأصوب، بالعودة مرة أخرى إلى فلسطين، وربما الإقامة الدائمة فيها.

[1] http://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=23062016&id=e4ecbf0c-3062-45b2-b67d-39681dc83109

ولعـلّ مـن يقـرأ روايـة المـدهون وعـن الشـعب الفلسـطيني أو القضـية الفلسطينية فهو بالتأكيد سيأخذ ما كتبه المدهون باعتباره حقيقـة، وسـيلاحظ أنّ كل ما كتبه هو انعكاس حقيقي للواقـع والتـاريخ الفلسـطيني مـن دون أن يفكـر بالرجوع إلى أي مصدر آخر،وكما قال ربعي المدهون في مقدمته الشارحة: "اسـتغرق إنجاز الرواية أربع سنوات، زرت خلالها فلسـطين أربـع مـرات، وعقـدت لقـاءات، وأجريت حوارات، وقمت بجولات ميدانية في كل الأماكن التي جـرت فيهـا أحـداث الرواية، وأجريت أبحاثا، وجمعت الكثير مـن المعلومـات الضـرورية للعديـد مـن المشاهد. لم يكن العمل على النص سهلاً أو هينًا، على الـرغم مـن الحجـم المتوسـط للرواية"[1]، وهو هنا يحاول أن يوحي للقارئ بمدى مصداقيته، ويؤكد له أن كل مـا جاء في الرواية محض واقع، وأنه حاول صياغة عالم روائي من هذا الواقـع، حتـى أن أسماء كل الأماكن المذكورة في الرواية كانت بالفعل حقيقية مثل ميدان "عمـر بـن الخطاب" في الخليل، وشارع "طريق البطريركية اللاتينية" في الخليل أيضًا، وسوق "خان الزيت"، وغيرها من أسماء الأماكن. كـذلك أسـماء المطـاعم مثـل "العجـوز والبحر" وهو مطعم ذائع الصيت في يافا، ومطعم "فلافل نجلاء" في حيفا، بل وأسماء المخابز مثل مخبز "أبو العافية". كل ما ذكره المدهون لـه وجـود فعـلي ومـادي عـلى أرض الواقع مُدللاً بذلك على مصداقية روايته وأمانته في نقل الواقع كـما هـو. كـما كان حريصًا على حشو الرواية بالحقائق التاريخيـة التقريريـة حـول الفلسـطينيين وصراعهم الطويل مع الاحتلال الإسرائـيلي، وبالدرجـة نفسـها حرصـه عـلى إقحـام الروائي الفلسطيني الراحل "إميل حبيبي" في سرده، وإعادة ذكر حقيقة حصوله على "جائزة إسرائيل في الأدب"، وهي أرفع جائزة أدبية تمنحها الدولـة الإسرائيليـة، دون

[1] . مصائر ص8

أن يفوته الحديث عن شيوعية "حبيبي" وانخراطه في الحركة الشيوعية وغير ذلك، كما تحدث عن حزب "راكاح" "الحزب الشيوعي الإسرائيلي"، ومتحف "ياد فاشيم" أي متحف المحرقة اليهودية، وهو مؤسسة إسرائيلية رسمية أقيمت في 1953م بموجب قرار الكنيست الإسرائيلي كمركز أبحاث عن أحداث الهولوكوست، وقام بوصفه وصفًا دقيقًا كما هو على أرض الواقع، وذكر مذبحة "دير ياسين" وغيرها من الأحداث التاريخية الفلسطينية التي مرت بها فلسطين.

حركات الرواية:

ورواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" تحتوي على أربعة حركات رئيسية، ويمثل كل منها إحدى حركات الكونشرتو قصة ذات بناء منفصل، لكن متصلة أيضاً بالثلاثة الباقية من خلال خيط منسجم.

الحركة الأولى:

تنسجم الحركة الأولى من زمن الإنتداب البريطاني على فلسطين ولكن المحور الأساسي لإحداث الرواية تبدأ من النكبة سنة 1948م. بحيث وقعت إيفانا الأرمينية الفلسطينية بحب طبيب بريطاني أثناء الإنتداب على فلسطين، وتهرب من عكا القديمة. وتتزوج من جون ليتل هاوس الطبيب البريطاني الذي يعمل في جند المملكة المتحدة في فلسطين وقت الإنتداب. وتزوج جون وإيفانا بعيدا عن عكا وأهلها، وأقيم لهما حفل صغير غير تقليدي، في قاعدة بريطانية قريبة من حيفا، وزف العروسان وسط ضباط القاعدة وجنودها. وأنجبت طفلة جميلة تشبه والدها وسمياها جولي وفي مارس 1948م، غادرت إيفانا البلاد وبين يديها طفلتها وعمرها شهران. وبحلول الخامس عشر من مايو 1948م، قدأنهت بريطانياتفكيك

معسكراتها ورحل جنودها تاركين فلسطين للمجموعات العسكرية اليهودية التي أعلنت قيام دولة إسرائيل وعاد جون إلى بريطانيا مع العائدين من بقايا جنود الأمبراطورية التي كانت تنسحب مع عظمتها.

وسقطت عكا بأيدي المنظمات اليهودية في الثامن عشر من مايو، وقتل أنترانيك اردكيان، شقيق مانويل وعم إيفانا في المعركة الأخيرة للدفاع عن عكا مع عدد من المتطوعين المسلحين ببنادق قديمة، وأبوه وأمه أليس قد هاجرا إلى لبنان عن طريق البحر قبل سقوط المدينة، وسكنا في المخيم مع ما يزيد على ثلاثة آلاف فلسطيني، هم خليط من المسيحيين الأرثودكس والكاثوليك الذين هجروا من حيفا وعكا ويافا. وعاش مانويل حياة بائسة في مخيم جسرالباشا ومات مهموما ومقهورا قبل اندلاع الحرب الأهلية في نيسان 1975م بشهرين. وسكتت إيفانا مستسلمة لموجة حزن عالية تكسرت على ملامحها وأرعشت شفتاها قشعريرة حزن وتساقط من عينها دمع كثير كأنما اختزنتها في سنوات. وأخيرا مسحت إيفانا وجهها بكفيها تجففه من وجع ماضيها الذي استحضرت بعضه بنفسها، وحضربعضه الأخر على الرغم منها بصوت خارج من متاعبها وقالت " لو قلت إن والدي رحلا من دون أن أراهما طيلة أكثر من خمسين عاما فلن يصدقني أحد"[1].

"أووووو ماما

أوأوت جولي متعاطفة مع والدتها وقامت عن مقعدها ووقفت خلف إيفانا مباشرة واحتضنت رأسها بين كفيها ثم انحنت برفق وقبلتها وقالت مازحة" يكفيك أنك كنت وأبي عاشقين كبيرين!"[2]، ثم اعتدلت في مكان جلستها وغيرت لهجتها

[1]. مصائر ص 32

[2]. مصائر ص 32

وطريقتها في مخاطبة الجميع الذي دعتها "دعوتكم اليوم أصدقائي لأقول لكم كلاماآخر، لاعلاقة له بماضي ولا بتركتي" وأضافت قائلة" قد لا أعيش طويلا، وأريد لجثتي أن تحرق بعد وفاتي وأن تجري مراسم تأبيني على وقع أغنية جون لينون (**Imagine**) أريد لهذه الأغنية التي لا تموت كما يموت البشر، أن تكون ما تسمعه أذناي قبل أن تلتهمهما النار وتتفحمان أتمنى على كل من يرغب في رثائي، أن لا يطيل الكلام، حتى لا يكثر من تعداد ما ليس من صفاتي التأبين أعزائي، ليس أكثر من حفل استغابة معلن ومتفق بشأنه، يستغله المؤبنون لغسل إساءاتهم للميت خلال حياته لو كنت أعرف موعدا محددا لرحيلي، لطلبت من كل من سيرثيني، أن يكتب لي ما سيقوله على ورقة، حتى أتمكن من مراجعته قبل غيابي الأبدي، حيث لامساءلة بعده ولا إمكانية لإدخال تعديلات بعد الإنتهاء من مراسم الحرق، تنثرون حفنة من رماد جسدي فوق نهر التايمز، يأخذه من هناك غبارا ويوزعه على مياه المحيط أنت حبيبتي جولي وأنت وليد، تتوليان ذلك"[1]، وتابعت إيفانا حديثها وقالت " خذوا بعضي وكل روحي إلى عكا يعتذران لها حارة خذوا ما تبقى مني وشيعوني حيث ولدت، مثلما ستشيعني لندن حيث أموت ياأصدقائي وأحبتي ، يوما ما، ولا أظنه بعيدا، سأموت أريد أن أدفن هنا وأن أدفن هناك"[2].

وبعد يومين من مراسم حرق جثتها، تسلمت جولي رماد إيفانا في وعاءين خزفيين صغيرين كما أوصت أخذت أحدهما وذهبت إلى شركة "آشز إنتو غلاس" في منطقة "إيسكس" في جنوب لندن وطلبت تصميم وعاء آخر من الخزف وبعد أيام

[1]. مصائر ص 33

[2]. مصائر ص 34

عادت إلى الشركة وطلبت الوعاء الخزفي المطلوب ونقشت على بطنه عبارة مصصمة (توفيت هنا توفيت هناك) وأسفلها نقش بخط أصغر: لندن – عكا 2012.

وبعد أسبوع على وفاة إيفانا حملت جولي الوعاء الخزفي الثاني وذهبت بصحبة وليد إلى " ووترلو بريدج" وسط لندن وهناك توقفا قبل بلوغ الجسر بأمتار قليلة، أقرب إلى الجهة المطللة على مبنى "رويالن ناشيونال ثياتر"، وكان هناك رجال ونساء من جنسيات وأعمار مختلفة، يتبادلون سعادتهم أو أحزانهم الخاصة على ضفة النهر العريضة، كانت ثمة فرقة موسيقية تعزف كونشرتو "دي ارانخويز" وانحنت جولي قليلا فوق الحاجز المعدني الأسود للجسر قلبت الإناء على فوهته وراحت تهزه بلطف، وتناثر رماد إيفانا في الهواء. فتصاعدت في الفضاء نغمات Mon amour ولوحت جولي ووليد بذراعيهما عاليا وهما يرددان بصوت خافت Goodbye sweet, Ivana goodbye حلقت سحابة من نغم ورماد عاليا، قبل أن تختفي في البعيد استدار الاثنان عائدين، غير مصدقين أنهما دفنا بعض إيفانا في الريح، وجعلا فضاء لندن نصف مثواها الأخير.

وثم جاءت جولي مع زوجها وليد حيث استقبلهما صديقهما جميل وزوجته الروسية لودا، وأثناء هذه الزيارة، تستيقظ رغبة جارفة لدى جولي في أن تسكن مع زوجها في عكا بدلاً من لندن، واقترحت جولي على وليد أن يبيعا بيتهما في لندن وينتقلا للعيش في عكّا ولن تعترض إن هو اشترى قطعة أرض في المجدل عسقلان، مسقط رأسه، فيجيب وليد: "هذه ليست عودة جيجي. أنا لن أعود إلى البلاد لكي

أعيش فيها غريباً. عندما نصل إلى لندن نناقش الموضوع بعيداً عـن ضـغط لحظـة الفراق هذه" [1].

وتنتهي هذه الحركة الأولى بتوادع الأصدقاء في مطار بن غوريون وحوار بـين جولي ووليد عن احتمال العودة للسكن في عكا تنطلق الرواية من نهاية زيارة وليـد وجولي إلى فلسطين، ثم تأتي الحركات أوالفصول التالية، لتستعيد ما تم خلال تسعة أيام من زيارتهما، وصولاً إلى اليوم العاشر، يوم عودتهما.

الحركة الثانية:

تشتمل الحركة الثانية على كل الأحـداث التـي أحاطـت بشخصـيتي جنـين وباسم، فلقد عادت جنين إلى بلادها بجواز سفرها الإسرائيلي عبر مطار بن غوريـون في اللدّ، وعاد باسم بجواز سفره الأميركي عن طريق عمّان، الضفة الغربية، بيت لحم ومنها إلى الرملة حيث خطب جنين وتزوجها وبعد عام من الزواج بدأ يشـعر بالملـل والغربة والضياع فهو لا يمتلك ضمانًا صـحيًا أو اجتماعيًـا ولا يحـق لـه العمـل في إسرائيل، فيتوغل ربعي المدهون الى أعماق غربة الداخل ومنفى الفلسطيني القـادم من الخارج أو من المخيمات في داخل وطنه، الفلسطينيون الذين تحولوا بحكم واقع التقسـيم الى اسرائيليـين في التسـجيل والجنسـية، وجنـين الفلسـطينية بجـواز إسرائيلي، زوجها باسم الفلسطيني بجواز أمريكي: "ياربي مش معقول الغربة تجمعنـا ويفرقنا الوطن"[2]. تتفاقم الأمور لدى باسم فيطلب منها أن تذهب معه إلى بيت لحم وتعيش هناك لكنها إن ذهبت إلى هناك فإنها ستخسر كل شيء، الوظيفة، والتـأمين الصحي، والاجتماعي وما إلى ذلك. وإذا بقيت هنـاك فإنـه سـوف يظـل يعـاني مـن

[1]. مصائر ص 65

[2]. مصائر ص 111

البطالة الإجبارية ولا يستطيع أن يبيع حتى الفلافل، أو يقود سيارة، أو ينظِّف الشوارع، والأمرّ من ذلك كله أنه لا يقبل بالعيش مُتطفلاً على تعبها!

أرسلت جنين القسم الأكبر من روايتها "فلسطيني تيس" إلى وليد دهمان فأعجب بها جدًا وأثارته أسئلة عديدة في الرواية من بينها: "هل أنّ "باقي هناك" هو والدها محمد إبراهيم دهمان نفسه؟ لأن الكثيرين مندهشون من قدرة محمود على العيش بين اليهود. وحينما احتلت إسرائيل في عام 1967م ما لم تحتله في عام 1948م تسلل محمود إلى الضفة الإسرائيلية وتزوج من امرأة رملاوية. لم تتوفق جنين في علاقاتها الخمس المتتالية فهي كاتبة مثقفة، وإنسانة متحررة لا تقبل أن تتحجب أو تتنازل عن جنسيتها الإسرائيلية أو تنتقل للعيش في بيت لحم أو نابلس أو أم الفحم أو حتى أميركا نفسها! وتظهر لنا شخصية "باقي هناك" الذي ارتحلت عائلته الى غزة مع من تم تهجيرهم تحت وابل القصف والنيران وبقي وحيدا متمسكا ببقائه في بلده لايستطيع وصل عائلته ولاعائلته تستطيع وصله.

وفي هذه الحركة يتنقل الكاتب بين حياة شخوصه في البلاد أو في غزة أو في المنافي ويوغل في جزء من تاريخهم الشخصي ويقدم لنا نماذج متعددة من الضياع والعلاقات التي انتجت واقعا مريرا وانتجت حكايات ضياع وتمزق.

الحركة الثالثة:

وفي الحركة الثالثة يحكي الراوي قصة وليد وجولي وما حدث لهما عندما عادا للوفاء بوعدهما لإيفانا، ويضيف في هذا الجزء ربعي المدهون تقنية سرد جديدة حيث يقدم لنا قصتين مختلفتين لما حدث مع وليد وجولي باختلاف بدايات

رحلتهما بعد وصولهما، وتكتشف هنا كـذلك الصـلات بـين الأبطـال في الحركـات المختلفة.

ويجلـس وليـد في الطـائرة إلى جانـب أدوارد الأمـيركي المتخصـص في صـيانة جرّافات كاتربِلر الشهيرة التي غيّرت خريطة الضفة الغربيـة وقطـاع غـزّة، ويمطـره بأسئلة متلاحقة لا تنطوي على أي نوع من البراءة، كما أنه ضيّع نصف سـاعة مـن وقته كان قد خصصها لقراءة رواية "فلسطيني تيس" لجنين دهـمان، بيـنما كانـت زوجته جولي منغمسة في قراءة رواية "في عين الشمس" لأهداف سويف.

تكشف هذه الحركة عن تسامح "باقي هناك" فلقـد عفـا عـن أفيفـا حيـنما حرقت بيته. وهو شيوعي معروف تعترف اللدّ والرملـة بزعامتـه. وهـو يعتقـد بـأن الفلسفة المادية قاصرة، ويحب أميل حبيبي الـذي فـاز بجـائزة الدولـة الإسرائيليـة للآداب عام 1992م. منذ انتقل "باقي هناك" إلى اللدّ بدأ يشجع حسنية عـلى إقامـة علاقات مع اليهود فلا غرابة أن تنفتح حسنية على نساء الحـي وتكسـب صـديقات يهوديات وأولهن أفيفا، أبرز الناجيات من مذابح اليهود التـي حصـلت عـام 1941. تنتهي هذه الحركة بحصول وليد وجولي على تأشيرتي دخول على ورقتين منفصـلتين ليبدءا رحلتهما في عدد من المدن الفلسطينية التي أحباها بشكل منقطع النظير.

ويستمر الكاتب بمجموعة حكايات يجمعها عمود الهم الفلسطيني بوجوهه المختلفة ، الزحف الأسرائيلي تجاه فلسـطين والزحـف الفلسـطيني نحـو الخـارج : "الفلسطيني يزحف ع السويد والدنمارك"[1]. وتتجسد لنا ملامـح كثـيرة لشخصـية

[1]. مصائر ص 151

"باقي هناك" الـذي قـرر منـذ ذلـك الـزمن :"ان يصرـخ بنفسـه ، قبـل أن يرحلـوا ويأخذوه معهم ((ياب ان هاجرتوا مابترجعوش)) تهتز المجدل على وقع الصدى"[1].

الحركة الرابعة:

يزور وليد متحف المحرقة "يد فشم" في القدس. يلتقي هو وجولي مع جنـين في يافا. يتعرف على مصادر روايتها "فلسطيني تيس" ومصائر أبطالهـا، ومـا انتهـت إليه علاقتها هي بباسـم في الحقيقـة وفي الروايـة. وتتشـابك الأحـداث في الحركـة الأخيرة من الرواية حيث يستقبلهما سلمان في مطـار القـدس ويعتـذر لأن زوجتـه عايدة لم تحضر معه إلى المطار، ويخبرهما بأنهما سيسهران الليلة مع الدكتور فهمي وزوجته ندى وكلاهما معجب بكتابات وليد دهمان. يؤكد الراوي وهـم في طـريقهم إلى القدس بأن "مذبحة دير ياسين هي التي غيّرت وجـه التـاريخ ورسـمت الملامـح القاسية لنكبة 1948"[2].

نستعيد من خلال زيارة الراوي وزوجته إلى يافا قصـة حـبهم الثلاثيـة التـي جمعت بين جميل حمدان ولودميلا ووليد دهمان لكنها انتهـت بـزواج جميـل مـن لودميلا فيما ظل وليد صديقاً لهما. أحب الراوي حيفـا إلى درجـة كبـيرة فالإنسـان الذي يزورها يخرج منها بلا عقل! ولعل الجملة الأكثر أهمية في الحركة الرابعة هي ما تفوّه به وليد حينما قال: "عليّ الطلاق عمر اليهود في ها البلد قصير" [3].

لابد من فكّ التشابك بين شخصـيتي باسـم في الروايـة وفي الحيـاة، فـالأول سوف يترك جنين ويرحل إلى أميركا بحجة أن هذا المجتمع لم ينضج بعد كي يتعايش.

---

[1]. مصائر ص 161

[2]. مصائر ص 182

[3]. مصائر ص 217

أما باسم الزوج فيعمل مدرسًا في بيرزيت لكنه يرفض الاستقرار في يافا وكـان يقـول لجنين دائمًا: "أنا حبي في يافا بس أحلامي في بير زيت"[1] وهي تقول العكس تمامًـا. فلا غرابة أن يصبح زاوجهما ترانزيت، ونشوة الحب فيه خاطفة مثل برق خُلّب.

لعل اللحظة الدرامية الأقوى في الحركة الرابعة هي مقتل "باقي هناك" الذي كان يحمل يافطتين عليهما صورة من مذابح دير ياسين وأخـرى مـن مـذابح جـرت لليهود في كييف. ينهض "باقي هناك" من موته الافتراضي ويحمل يافطتيـه ويغـادر الساحة وهو يردد النشيد الأممي الذي يقول: "هبّوا بجموع قوية لاح الظفـر / غـدًا الأممية ستوحد البشر ."

أنهى وليد وجولي معاملات السفر في مطـار بـن غوريـون في اللـد ليعـود إلى لندن في اليوم العاشر وهو يفكر بالعودة ولكنـه إن عـاد سـوف يعـاني بالتأكيـد مـا تعانيه جنين. السؤال الآخر الأكثر إلحاحًا هو: أين يقـيمان؟ في عكّـا التـي كانـت نتف ذكريات لملمت جولي حقائقها القديمة من أحلام والـدتها، وحقائقهـا الراهنـة من زيارتهما التي يضعان نهايتها الآن؟ أم في مسقط رأسه المجدل عسـقلان؟ التـي فتح فيها عينيه حين نزل من بطن أمه وأغمضهما مرغما ولم يفـتحهما ثانيـة عليهـا إلا بعد اثنين و ستين عاما. وماذا عـن حيفـا التـي يجـنن مجـرد ذكـر اسـمها كـل الفلسطينين؟ وحيفا هي التي جعلته يصرخ: "ولكْ آآآآآآخ آخ عَ هلبلاد، ولـك مـا بَعرف كيف ضيعناها" فيرد عليه كثيرون في المطعم: "لـك آخ وميـت آخ"[2]. فحيفـا تأخذ العقل وقد جننت كل الفسلطينيين كـما يزعمـون. وعـودًا عـلى جـولي التـي أخفت حقيقة ما جرى لها في بيت جدها مانويل أردكيان إذ رفض المستوطن أن يضع

[1]. مصائر ص 255

[2]. مصائر ص 263

التمثال الخزفي المعبأ بالرماد في بيت أبويها إذ قال لها: "لا نقبل غرباء في بيتنا. . هيا هيا. . انصرفي" وقذف التمثال فوق رأسها ثم انكسر فتناثر الرماد وراح يختفي في سماء المدينة. ومع ذلك فقد عادت إيفانا إلى عكّا وغادر وليد وجولي إلى لندن لكنه اتخذ قرارًا مناسبًا وأخبر زوجته بأنهما سيناقشانه حينما يصلان إلى هناك.

والإنتقالات بين الشخوص ، سلمان جابر ، جميل ، لودا الروسية ، أيام دورات النضال والعمل الشيوعي ، القدس ، حيفا ، يافا ، مذبحة دير ياسين ، مسارات الكفاح الوطني ،" أملا في التحرر والعودة ولايعود ولايعودون"[1]، حي وادي النسناس الذي بقي "رابضا منذ العام 1948 ، مثل أسد يحرس ماتبقى لنا في حيفا ظل فلسطينيا"[2]، رموز تاريخية ، فيصل الحسيني ، عبد القادر الحسيني ، عز الدين القسام ، شواهد وتاريخ : "استوقفني كوكتيل التاريخ والحضارات الذي رأيته هنا، وسأراه في معظم ابنية المدينة القديمة وشوارعها يوناني إغريقي، بيزنطي، روماني، مصري فرعوني، عربي، إسلامي"[3]

المسجد الأقصى ، كنيسة القيامة ، قبة الصخرة ، الهيكل الثاني ، قبر النبي زكريا ، باب العامود ، متحف ضحايا محرقة اليهود ، ويتوصل لقناعة :"اكبر خريطة تزوير للتاريخ والجغرافيا في عصرنا الراهن"[4]. تتجه الرواية في الأخير الى ادانة المذابح التي جرت للفلسطينيين والمذابح التي جرت لليهود: "عندما خرج (باقي هناك) من البيت يحمل يافطتين علق عليهما صورتين، واحدة من مذابح دير ياسين والثانية من مذابح جرت لليهود في كييف"[5]. وتنتهي الرواية على يافطاته التي لم ينظر اليها أحد ، ويعود دامعا مع النشيد الأممي.

---

[1]. مصائر ص 186

[2]. مصائر ص 202

[3]. مصائر ص 216

[4]. مصائر ص 233

[5]. مصائر ص 257

في الختام لابد من الإشارة إلى أن هذه الآراء النقدية العامة قد تنطبق على رواية ربعي المدهون لكن فوزها غمط كثيراً.

بعض الأسماء الواردة في الرواية:

1. وليد دهمان: فلسطيني مغترب زوج جولي، لم تتعرف الفلسطين.
2. جولي زوجة وليد دهمان: نصف فلسطينية نصف إنجليزية (تنحدر من أب انجليزي وأم فلسطينية أرمنية)، تموت أمها في الغربة، وتطلب من ابنتها أن تضع رماد جثتها في بيتها القديم في عكا. فتحضر بصحبة زوجها لهذا الغرض.
3. فاطمة النصراوي المعروفة بـــــ "فاطمة معارف" و "ست معارف": فلسطينية من عكا، مرشدة شعبية، تقدم للسياح الأجانب معلومات صحيحة عن عكا، وهي التي دلت جولي على ما كان بيتا لجدها لأمها. ويمنحها لهم مرشدون يهود بالمال: "بنعطيهم معلومات صحيحة ابّلاش أحسن ما يشتروا الكذب من اليهود ابمصاري"[1] . يبدو جلياً أن المؤلف الضمني يقدمها لنا هنا رمزاً لوعي العرب الباقين في عكا وكل المتبقين من الفلسطينيين في الدولة اليهودية.
4. إيفانا: أم جولي التي ستتوفى فيما بعد. تعيش وحيدة في بيتها بعد وفاة زوجها الضابط البريطاني السابق في جيش الانتداب.
5. ليا بورتمان: صديقة إيفانا، شاعرة يهودية إنجليزية تعيش مع صديقها ــ ذي الخصية الواحدة ــ من أصل أفريقي (كواكو) وتتحدث بطريقة أرستقراطية.

[1]. مصائر ص 15 - 16

6. جميل حمدان: الفلسطيني من حيفا. يساري سابق. صديق وليـد وشريكـه في العلاقة السابقة بالروسية (لودميلا بافلوفا). متزوج من يهودية.
7. لودا: زوجة جميل اليهودية، التي يبدو أنها تحب الفلسطينيين

الفصل الثالث

دراسة فنية:

تعد رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة " للروائي الفلسطيني ربعي المدهون من أهم وأفضل روايات عربية فلسطينية التي كتبت حول النكبة الفلسطينية والهولوكوست. وهي رواية مليئة بالحياة والأمل والتمسك بالحق الفلسطيني مهما تفاقمت الأمور من تحديات وآزمات. وتقدما للجوء والنكبة والتشرد والقهر القومي والاجتماعي والثقافي الذي عاشه الفلسطينيون بخاصة الذين ظلوا هناك داخل أراضي 8 ، وجسد المدهون بهذه الرواية هذا الواقع على لسان أبطال روايته. والرواية تستحق أن تقرأ وأن تدرس بعناية فائقة. ورواية مدهشة ومستفزة وتشكل منجزا ثقافيا وحضاريا عبر ما قدمته من رؤى ومواقف وحالات عاشها أبطال الرواية وعبروا عنها كافة الحركات التي تضمنتها الرواية.

ورواية "مصائر" لربعي المدهون، رواية جيدة بلغتها الشيقة وببيان أحداثها، وهي رواية مفاجئة وصادقة وصادمة ومتميزة بشكلها وبمضمونها وحبكتها وعن الثيمة الأثيرة الفلسطينية، وهي المذكرة من الماضي إلى الحاضر، وإلى باقة من الذاكرات ومتعددة الاتجاهات التذكير بجوهرالصراع القائم على أرض فلسطين. والشرائح التمثيلية. ويختار ربعي المدهون بعناية ودراية ممن ظلوا في أرضهم أو من تركوا وهاجروا إلى بلد آ خر، وجميع الشخصيات يتناولها المدهون من هذه الشريحة، وتعيش من خلال ذاكرتها المثقلة بفلسطين وانعكاسات نكبتها على الذات، فاللاجئ في الرواية، يبدو كائنا مسيّرا تقوده ذاكرته إلى مصيره المحتوم في هذه الحياة، كما تقود أشعة الضوء الفراشة. وتبدو الذاكرة هنا أشبه كسراب. فحلم العودة يورثه اللاجئ لابنه كما يورثه صفاته الخلقية.

ويجد الدارس لهذه الرواية المقارنة الحتمية بين النكبتين، وبين متحف "الهولوكوست" المنجَز، ومتحف النكبة المتخيلة. وهنا تغدو المفارقة أكبر من أن تحتويها الكلمات أو تدركها البلاغة، والآن اصبحت النكبة الإسرائيلية صورة ومذكرة في متحف بلدان العالم. أما النكبة الفلسطينة فهي حياة يومية تتنفس وتأكل وتتجول وتسافر ولا تموت بل يزداد الظلم يوما فيوما، ويورثها الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد.

وقد فاز الروائي في التقنية التي استخدمها في " تحوّلاته " و " تجوّلاته " ، والتي تناغمت تماما، صعودا وهبوطا وفرحا وإحباطا، مع تقنيّة " الكونشرتو"، ومع أنّها تقنيّة مرهقة بالنّسبة للرواية. إلّا أنّ المهمّ هل يؤدي بهذا العمل وظيفته ورسالته أم لا ؟ والإجابة في حالة ربعي المدهون هي " نعم جازمة " ، فقد حوّل المدهون في روايته كلّ الكتل الرّوائيّة عن تاريخ فلسطين وحاضرها إلى تفاصيلَ يمكن رؤيتها ولمسها.

وأعترف مع الروائي بأن شكل روايته يطابق شكل" الكونشرتو"، لكنه لم يكن في حاجة إلى هذا التوضيح، إذ إن نوايا الروائي قلما تطابق منجزه النصي، والروائي يصرح بأن استيحاءه للكونشرتو يتمثل في توظيف الحركات الأربع، حيث يركز في كل حركة على شخصيتين ويعود، وفي الحركةالأخيرة التي جعل كل الشخصيات تتقاطع والأحداث تتكامل، فيكتسب النص المتشظي ملامح دلالية تضيء جوانب متباينة من القضية الكبرى القابعة في خلفية النص، وهناك عناصر عديدة دعمت البناء التجريبي للرواية.

وهي عملية تخلق مرآة موازية تعكس المواقف والخطابات من زوايا متباينة. يقول د.فيصل درّاج: "اختلف ربعي المدهون عن سابقيه من الروائيين الفلسطينيين وانتسب إليهم، أخذ من جبرا عشقه المرهق للمكان، ومن إميل متشائله، وتأمل رواية غسان "عائد إلى حيفا" في زمن آخر، حيث لا مكان للبنادق

وكثير من المكان تحتله "جرائم الشرف المتكاثرة "، انتهى المدهون إلى نص روائي متميز جدير بالاحتفاء ، يساوي بين اللاجئ وظلم الوجود الذي لا يروّضه أحد"[1].

وفي رواية "مصائر" يقول المدهون: "عمدت إلى ما أطلق عليه فيصل دراج " بلاغة الحنين"التي رسمت هذه المرة القضية في أبعادها كلها لكني حرصت على إبعادها عن سطوة النوستالجيا والميلودراما، وتنقيتها من الموعظة، وتجنيبها الخطابة المحكومة لمعايير أيديولوجية. وأما فيما يتعلق "السردية " الفلسطينية ، فلم تكن بعيدة أبداً عن النكبة والتهجير واللجوء والمنافي، ولكن أشكال تناولها تباينت، وكذلك ثيماتها وأساليبها، تباين التجارب الفردية لساردیها.

الرواية تبدو في بعض مفاصلها، مرة وأكثر من حزينة، لمرارة النكبة نفسها، التي تتوالد في حياة الفلسطينيين منذ نكبة عام 1948م وهي التي جعلت حياة الفلسطينيين منافي ومهاجر. لهذا وكما يقول الكاتب ربعي المدهون نفسه عندما سئل عن ماهية روايته مصائر: "اتخذت الرواية من " الشتات " ثيمة رئيسية لها يقارب مدلولها المعني الكامن في عنوانها"[2] .

لا شك في أن الجهد الذي بذله ربعي المدهون في تشكيل الرواية وتنويع طرائق سردها ومستويات اللغة والكلام المهشم على لسان الشخصيات الأجنبية، وتوظيف السخرية اللاذعة والفانتاستيك، قد أتاح له أن يستوعب مجموعة من تفاصيل الحياة داخل فلسطين المحتلة وفي الشتات، ليجعلها تصب في موضوع أساس له مظهران واضحان: الأول عن مأساة ضياع الوطن وشعور الفلسطينيين جميعهم، لا فرق بين مَنْ هم في الداخل أو في الشتات، بوطأة الاحتلال الإسرائيلي. والمظهر الثاني، يلامس تلك المفارقة التي يعيشها اليهود داخل "إسرائيل الديموقراطية"، حيث تقيم الدولة متحفا يخلد أسماء ضحايا الهولوكوست، وفي

---

1. http://www.aljasraculture.com/aljasra24995/ .

2. http://www.fateh-gaza.com/ar/?Action=Details&ID=113827 .

الآن نفسه يستمر جيش الاحتلال في قتل الفلسطينيين الأبرياء وتدمير منازلهم والزج بهم في السجون. يقول وليد محدثا نفسه وهو يزور متحف ذاكرة ضحايا النازية في القدس.

هذه الرواية تضيف الى السرد الفلسطيني أفقا غير معهود سابقا ويمكن وصفها بالرواية الفلسطينية الشاملة تتناول في آن مأساة فلسطين من جوانبها كافة. تقع الرواية في أربعة أقسام، يمثل كل منها إحدى حركات الكونشرتو وحين يصل النص إلى الحركة الرابعة والأخيرة، تبدأ الحكايات الأربع في التوالف والتكامل حول أسئلة النكبة، والهولوكوست، وحق العودة. إنها رواية الفلسطينيين المقيمين في الداخل الذين يعانون مشكلة الوجود المنفصم وقد وجدوا أنفسهم يحملون جنسية إسرائيلية فُرضت عليهم قسرا. وهي رواية الفلسطينيين الذين هاجروا من أرضهم إلى المنفى الكبير ثم راحوا يحاولون العودة بطرق فردية إلى بلادهم المحتلة. إنها رواية فلسطيني الداخل والخارج.

يختار الكاتب أسلوبا مركبا وصعبا وغير مألوف في الرواية العربية، فهل جاء اختياره هذا صدفة، أم أنه أراد أن يحاكي من خلاله تعقيد وتركيب موضوع الرواية نفسه،الذي استنزفه أسلوب السرد التقليدي للرواية الفلسطينية؟ وهل أراد الكاتب بانتهاجه لهذا الأسلوب إبعاد القارئ عن الملل الذي قد تتسبب به طريقة السرد التقليدي للرواية، وفتح أبواباً جديدة لمقاربة المأساة الفلسطينية، من خلال فتح أكثر من نافذة للإطلال على صيرورة المشهد الفلسطيني بعد 68 عاماً من النكبة وتتبع آثارها في حيوات شخصيات ظلت غائبة أو مغيبة بقصد أو دون قصد لدى الروائيين الذين تناولوا الموضوع نفسه؟

ربما كان من الصعب الإجابة عن تلك الأسئلة، دون الدخول إلى متن الرواية نفسه التي اختار صاحبها أن يخوض منذ البداية، في أعماق مياه عكرة وراكدة في آن معاً، إلا أن طريقته في تحريكها تظهر إلى حد بعيد الكثير من المخلفات التي دفنت فيها!

ولا يبدو أن اختيار المدهون للشق الثاني من عنوان الرواية "كونشرتو الهولوكوست والنكبة" اعتباطيا، ذلك أن كلمة الهولوكوست وحدها دون ربطها بالمخلفات التي نتجت عنها: "النكبة"،كانت كفيلة بأن تثير حساسية عالم لا يزال موسوما بعار تلك المرحلة. فالعالم الذي تسبب بالمحرقة وشارك بها بشكل أو بآخر، بدا وكأنه قرر مرة واحدة وإلى الأبد أن يطوي تلك الصفحة، ولكن ليس قبل اعتبارها ماركة مسجلة باسم اليهود حصرا ودون منافس، كي يُعمّي قصدا عن محرقة أخرى تسببت بها هذه المرة الضحية ذاتها لتنال من وجود شعب آخر، دفع ويدفع ثمنها دون أن أي ذنب اقترفه بحق الضحية!

إنها بحق رواية جميلة تقدم نصا سرديا ممتعا، فبالإضافة إلى فنيته الملفتة، فهو يقدم كذلك خدمة كبيرة للقضية الفلسطينية، وخاصة لسكان أراضي 48،الذين ظلوا ممسكين بالجمر،رغم عدم تفهم كثير من العرب لمأساتهم المستمرة في الزمان والمكان، كما أنها تحيي ذكرى أولئك الذين طالهم التشريد رغما عنهم، وهم لا يتركون فرصة تمر دون أن يداعب وجدانهم حلم العودة إلى أحضان الأرض، بل ويسعون إلى تحقيق ذلك بكل ما يملكون من حب وشغف. دون أن تغفل الرواية الخلفيات التاريخية لسقوط فلسطين في يد العصابات الصهيونية من خلال التركيز على التواطؤ الانجليزي المفضوح، الذي سلم الأرض وضميره معها للعصابات المحترفة التي هجرت الإنسان واستولت على الأرض بهجيمة فريدة في التاريخ.

في الرواية شخصيات تعود لوطنها بعد التهجيرالقسري، وأخرى تحمل الوطن داخلها بكامل تفاصيله، تقدم للسياح الأوربيين معلومات حقيقية عنه بالمجان، حتى لا يسقطوا في أيدي اليهود فيشحنوا أذهانهم بالأكاذيب حول تاريخ المدينة، وهذه المهمة النبيلة، تتكفل به فاطمة العكاوية، التي يطلق عليها الأهالي فاطمة معلومات، بسبب معلوماتها الكثيرة والدقيقة عن المدينة، وكأنها كتاب مؤلف عن

المكان، وهي بالطبع تفتخر بالدور الكبير الذي تقوم به حفاظا عـلى عكـا حيـة في الذاكرة.

والحضور النسائي في الرواية كثيرة وفاعلة، يتحقق من خـلال الأم والحبيبـة والمناضلة والزوجة والصديقة، إنه حضور يؤثر على الدورالكبير الذي تمارسه المـرأة الفلسطينية من أجل الحفاظ لوطنه وهويتة وكذالك المكـان والإنسـان، فكـم هـو ملفت أن تطلب الأم من "وليد" أن يذهب للجـامع ويصـلي مـن أجلهـا، رغـم أنهـا تعرف أنه لا يصلي أصلا، وهي لا تتدخل في ذلك، لأن الله وحده كفيـل بمحاسـبته على الأمر. أما ما طلبته منه فيعني شيئا مختلفا تماما.

وأما فيما يخص البناء السردي الفنـي للروايـة وقـد نجـح الكاتـب في نقـل أحداثه وتفاصيله من بداية إلى نهاية الكتاب، وكان موفقا في توفير التناوب والتواتر في سرد الأحداث والأستدراكات والملاحق السردية. وقد وردت في الرواية الكثـيرمن السرديات الوصفية لأجل غايات كان يريد الكاتب الوصول اليهـا، فكانـت الأطالـة والتوسع أكثر ماينبغي في هذا المجال قد أدخل بعض المقـاطع الى بعـض المـدخلات الوصفية والتاريخية التي امتازت بصيغة تقريرية. وقـد تضـمنت الروايـة انتقـالات وصفية للجغرافيا والتاريخ والهواجس التي استرسل بها الكاتـب كثـيرا سـاهمت في إغناء الصورة لدى المتلقي، فقد كـان الكاتـب ينتقـل مـن مكـان الى مكـان ومـن موضوع الى موضوع في حركاته وأجزاء حركاته لتكوين صورة وغرض يريد الوصـول اليه. والكثير من تفاصيبل.

وربعي المدهون يسترسل الرواية بسرد أشبه مـايكون كنقـل تفاصـيل رحلـة وهذا ماكان يريد الكاتب لمزيـد مـن التوضـيح والإضـاءة لخدمـة موضـوعه لكنـه استغرق كثيرا من القاريء اذ ترك القاريء يستوحي الجـو الحكـائي والسردي مـن تفاصيل نقل المكان لو ان الكاتب قد كثف أحداثه السردية الحكائية في نقل المكان والزمان بدلا من الإسترسال في الوصف الموسع للـرحلات والتـنقلات التـي حولـت (بعض) المقاطع الى رحلة في الجغرافيا والتاريخ.

هي فعلا روايـة لإخـراج مـا يضـمرفي الصـدور، وقـراءة لوجسـتية للنكبـة والوضع الفلسطيني على امتداد الزمن الذي يبدأ مـن الهجـرة أو الهـروب، وفي كـل مكـان حيـث انتشـار الكـره للعـرب وللمسـلمين دون إدراك لجـوهر الحكايـة الفلسطينية التي بدأت بترك أبواب البيوت مغلقة، ليزداد الحنين الى العودة في ظل حياكة إسرائيلية تهدف الى توطين اليهود في الأراضي الفلسطينية.

مزاحمـة للفلسـطينيين في الـدنيا التـي تشـبه فكـرة محشـوة بالرمزيـات والإيحاءات والدلالات التي تركز على توحيد الهمـوم الفلسـطينية بـين المسـيحيين والمسلمين، وبين كل من يؤمن أن الإنسان هو الإنسان بكل معتقداته التي يحبكها المدهون برؤية لها اسقاطاتها التكتيكية التي ترنو الى إظهار التابوت الخشبي وثـوب العرس، والباب المرسوم على غلاف الرواية، والكثير من التفاصيل التي جعلت من جون عريسا يصل لندن سنه 1948م لتتشابك الأحداث وفق رمزيات توحي بالكثير من الاستبطان الذي اعتمد عليه المدهون في روايته"مصائر"الصـادرة عن"المؤسسـة العربية للدراسات والنشر"اذ تبدو ديناميكية التخيلات متحركة حيث توفيت هنـا توفيت هناك هي الرواية باكملها لفلسطين التي تنتظر نثر رمادها لتولد هنا، وتولد هناك وانما في إشارة منه الى ما يحدث من اتفاقات ومعاهدات الخ..لكن كل ذلك لا يعيد لفلسطين حقها لتكون كقصة حب شهد البعض على نصف مثواها الأخير.

واعتمد المدهون على ثنائية الشـخوص المتحركـة، كـما اعتمـد عـلى ثنائيـة الهولوكوست والنكبة والمقارنات بأسلوب خفيف بسـيط ذي عقـد مرنـة، ومـا تـم التعويض عنه وما لم يتم اعتباره هولوكوست هو كونشرتو زمنية مقسـمة الى أزمنـة حقيقية لها مصداقيتها في الحدث التاريخي"في عتمة التاريخ البعيد تصـعب رؤيـة التفاصيل، في وضح نهار الحاضر"محاولا جعل روايته تاريخية لمـن يريـد أن يـدرك مفارقات التاريخ في العصر الحديث وكيف تطور الاحتلال وأيـن الأخطـاء الكبـيرة التي تصمت عنها الشعوب كـالبيوت التـي تـم منحهـا لليهـود بكـل مـا فيهـا مـع الاحتفاظ بسخرية من سكنوا فيها من الاسرائيليين، وفي هذا تصوير واقعي مستند

الى حقائق، لكل ما مر منذ النكبة أي بمرحلة ولادة وموت، وضمن إسقاطات اعتمد عليها المدهون بحرفة روائية رسم من خلالها واقعين، ليتماشى مع ما هو افتراضي حاليا، لتتكون الأجزاء كرواية يتلاعب بشخوصها من هو قادر على بناء الحدث المثير للدهشة بفن أعاد لضحايا المحرقة النازية أو"يد فيشم" الحق في انتزاع التعويض من الالمان بينما لم يحدث هذا لمن تركوا بيوتهم بكل ما فيها لمن استوطنوا بيوتهم دون أي تعويض لهم الحق فيه وشتان بين الهولوكوست والنكبة، فهل الرواية هي فعلا كما يقول المدهون مراوغة ذاكرة أثقلتها نوستالجيا بنتها حكايات تشبه الوصايا وراكمتها على مرالسنين؟

كثف المدهون من التفاصيل التي جمعها عبر التاريخ ومن جدليات ما زالت قائمة، ومن أحاديث شعبية زينت الرواية التي وضع الحقيقة فيها بين روايتين في رواية واحدة، ليشتت القارئ ويبعده أحيانا عن تلقائية الخبر المؤكد والموجود في سجلات التواريخ التي تؤكد على الكثير من الحقائق التي دسها في رواية تاريخية بامتياز هي لفلسطين، وبثلاثية معاصرة واقعية بمرارتها وحلاوتها وسخريتها السوداء، ومتخيلة في التركيبة الحركية الرباعية التأليف وافتراضية في الحياة التي بات ينشدها الجميع للهروب، من الحدود وما هو ممنوع ومرغوب وما إلى ذلك .

اعتمد ربعي، كما يقول، في بناء الهيكل الخارجي لروايته على الكونشرتو الذي يتألف عادة من ثلاث حركات، سريعة، بطيئة، وسريعة مرحة وأحيانًا من أربع حركات كما هو الحال في كونشرتو "الفصول الأربعة"، واتخذ من هذا الشكل وعاءً لأحداث روايته التي تدور في تسع مدن عربية وعالمية.

فيما أوجزت الناقدة الإماراتية أمينة ذيبان رأي أعضاء لجنة التحكيم في تقييمهم للنص الروائي الفائز حيث قالت: " تبتدع رواية "مصائر" نسيجا روائيًا فنيًا جديدًا يصور تحولات المسألة الفلسطينية، وتثير أسئلة الهُوية وتستند إلى رؤية إنسانية للصراع." كما أضافت قائلة: " تعدُّ "مصائر" الرواية الفلسطينية الشاملة،

فهي ترجع إلى زمن ما قبل النكبة لتلقي ضوءا على المأساة الراهنة المتمثلة في الشتات والاستلاب الداخلي. إنها رواية ذات طابع بوليفوني مأساوي، تستعير رمز الكونشرتو لتجسّد تعدّد المصائر[1]".

حظيت رواية مصائر بهجوم نقدي عنيف لم يسبق له مثيل بعد فوزها بجائزة البوكر العربية عام 2016م، رغم أنها نالت قبولا بين القارئين والدارسين، ووصلت طبعاتها إلى القراء والنقاد قبل أن تفوز بالبوكر، لكن الجائزة التي طمع فيها أو سعى وراءها العديد من الروائيين العرب، أثارت غضبا كامنا، يتكرر كل عام سواء بالتشكيك بالجائزة أو لجنة التحكيم، لكن ذلك لا يمنع جميع المشككين من المشاركة فيها وإرسال المواد إلى لجنتها كل عام.

أعتقد أن الإزعاج الذي سببه الروائي المدهون لعدد من النقاد هو أنه غرد خارج السرب؛ أي خالف الوضع الراهن للرواية العربية عامة، والفلسطينية خاصة، قال ما نخجل أن نقوله، قال عن البعد الثالث للصورة التي نتخفى خلفها، عن إنسانيتنا وضعفنا، تخلى عن الأوليمب فينا، قتل زيوس وهرقل الذي لا يهزم، وجاء بالإنسان الفلسطيني العادي الذي أنهكته الحرب واللجوء والمعاناة، إنسان عام 2015، ووضعنا أمام الصورة الحقيقية المزعجة، قال لنا هذا هو الواقع الذي يسود وإن لم تنتبهوا؛ سنصل إلى ما هو أكثر.

في مجمل الرواية كان الكاتب ربعي المدهون موفقا الى درجة كبيرة في الإحاطة بالهم الفلسطيني وهم النكبة ومخلفاتها الذي توجهت الرواية للإحاطة به وتشخيصه. فأبارك الروائي لهذا الجهد القيم، وأهنئه لفوز جائزة البوكر العربي، وإني أبتهج ويسرني النجاح الذي يحققه أخوتنا من كتاب فلسطين الشقيقة لأنه جزء مهم من حلقة نجاحات مطلوبة لمواجهة فصول النكبة.

رواية ربعي المدهون، رواية فلسطينية بامتياز، ليس فقط لأنها نجحت في توصيف وجع الفلسطيني ومأساته والظلم عليه بأبعاد جديدة وبتقاسيمها المتنوعة،

[1]. http://alwatan.com/details/97958

بل أيضا لأنها نجحت في إعطاء بعد آخر للهولوكوست مادته هذه المرة الفلسطيني الذي كان ضحية الضحية. ولا يمكن في نهاية هذه الورقة سوى أن أقول إن رواية "مصائر"تطبيع جميل مع الفن الروائي الذي يسعى من خلال حشد وفرة من التفاصيل والأحداث والمعلومات والأحاسيس من أجل خلق أثر أدبي متميز، وهذا بالضبط ما حققه ربعي المدهون من خلال هذه الرواية المتوجة.

في الختام يجب الإشارة إلى أن الرواية بشكلها الحالي فن حديث النشأة، ضارب في الثقافة والتاريخ بمقدماته القديمة من أسطورة وحكاية، لكن الأدب إجمالا قد نشأ مع نشأة الانسان من عصور البدائية الى يومنا هذا، فكانت الآداب والفنون الأولى تجسيدا شكليا أو صوتيا، أو جماليا لما أراد الإنسان قوله، فرسم رحلات الصيد على جدران المعابد، ونحت التماثيل، ونقش النقوش على الحجارة، ثم اخترع الكتابة فكتب ما أعتقد إنه بحاجة للكتابة.

الباب الثالث: دراسة رواية "مصائر" لربعي المدهون

الفصل الأول: صورة النكبة الفلسطينية الكبرى في رواية "مصائر".

الفصل الثاني: مكانة رواية "مصائر" لربعي المدهون بين الروايات المماثلة المعاصرة الأخرى.

الفصل الثالث: دور رواية "مصائر" في صحوة الحنين الوطني للفلسطينيين في المهجر.

الفصل الأول

صورة النكبة الفلسطينية الكبرى في رواية "مصائر"

يطرح صاحب الرواية الفلسطينية ربعي المدهون برصد كبير من التغيرات التي تطرأ على حياة الفلسطينيين وتفكيرهم ونظرتهم لواقعهم وتاريخهم بين الداخل والشتات، ويعتقد أن الحالة الفلسطينية فريدة من نوعها، ومنفى الفلسطيني مغاير، وهذا كله ليس اختياريا، بل اضطر اليهود أن يعيشوا الفلسطينيون في صورة ضنك. وتختلف عودته إلى أرضهم ووطنهم اختلافا كبيرا عن البلدان الأخرى في العالم. ويواجه بداية "صدمة المكان"، حين يباغته التاريخ بكل تراجيدياه ونكباته، حاضرا في جغرافيا ليست ما في الذاكرة أبدا، لذلك تراه يحرص على مقاربة قضايا الهوية والانتماء والولاء بعد ما مضي أكثر من ستة عقود على وقوع النكبة الفلسطينية.

رسم ربعي المدهون الرواية في صورة الحزن والمأساة الفلسطينية الكبرى في أبعادها، مبتعدا عن الموعظة والميلودراما، فالدموع تخطئ باب الحقيقة، مجسدة ماهو مأساوي بامتياز. وكشف عن المأساوي المديد في أقدار الفلسطيني، الذي عليه أن يمحو هويته حتى يزور بيته القديم، كأن لا يعود إلى وطنه الأصلي إلا بجواز سفر بلد آخر وهذا من مأساة كبيرة في التاريخ. ويضيف "ولعل إصرار المدهون على السير مع "القضية" في أزمنتها المتعاقبة، كما قراءة الفلسطينيين وأمكنتهم المتحوّلة، داخل فلسطين وخارجها، هو الذي قاده إلى عمل روائي ذهني ملتبس: ذهني وهو يحاول القبض على المأساة الفلسطينية في مستوياتها المختلفة، التي يخترقها احتلال إسرائيلي متعدد الوجوه، وملتبس وهو يضيف الواقعي إلى

المحتمل، ويقرأ الوقائع المتخيلة في مدن فلسطينية معروفة الاسم: مجدل، عسقلان، عكا، القدس، حيفا، يافا".

يكتب ربعي المدهون في روايته "مصائر" عما تعرض له اليهود في الهولوكوست، وماتعرض له الفلسطينيون من ظلم وقهر واضطهاد في مجازر وفي حروب متعددة في وطنهم من قبل دولة إسرائيل. ويناقش صورة النكبة الفلسطينية وأزماتها من خلال شخصيات عدة، وأحوال الذين بقوا في فلسطين بعد حرب 1948، ومن الذين غادروا أرض وطنهم وعاشوا عيشة أجنبية في أرض بعيدة وفي بلاد أجنبية، والصعوبات التي يعانيها الفلسطينيون كل يوم، إذا أرادوا الرجوع إلى وطنهم الحبيب.

ويُضيء الكاتب الفلسطيني ربعي المدهون في روايته الإضطهاد على الفلسطينيين عبر التاريخ بداية من احتلال اليهود على فلسطين، وأجبروا على مغادرة بلادهم وثم منعوا من العودة إليها، وآخرين اضطروا للبقاء والعيش في بلدهم ومسقط رأسهم، أصبحوا بحكم الواقع الجديد مواطنين في دولة الاحتلال ويحملون جنسيتها، ليتجاوز في حكايته عرض القضية الفلسطينية، عارضا الحياة اليومية تحت الاحتلال لفلسطينيين، فأصبحوا مواطنين جديدة في "الكيان الصهيوني"، وكذلك حال من استطاع العودة بطريقة ليستجدي حق إقامته في بلده من غرباء استولوا عليه، وفي الوقت نفسه يمُطر قارئه بأسئلة حول مجزرة الهولوكوست، ومجازر الاحتلال.

يقدم ربعي المدهون صورة النكبة الفلسطينية في حركته الأولى بعلاقة الحب التي ربطت إيفانا أردكيان، وهي الفلسطينية الأرمنية المقيمة في عكا القديمة، بطبيب بريطاني في زمن الانتداب على فلسطين، واللذان سرعان ما ينجبا طفلة،

ترحل بها إيفانا إلى العاصمة البريطانية عشية النكبة عام 1948، ليغلبها بعد ذلك الحنين، فتوصي ابنتها جولي، بحرق جثتها وإعادة بعض رمادها إلى ما كان منزل والديها في عكا القديمة، أو إلى منزل عائلة مقدسية مستعدة لاستقبالها.

"خذوا ما تبقى مني وشيعوني، حيث ولدت، مثلما ستشيعني لندن حيث أموت. يا أصدقائي وأحبتي، يومًا ما، لا أظنه بعيدًا، سأموت. أريد أن أدفن هنا وأن أدفن هناك"[1].

ثم ينتقل الروائي إلى الحركة الثانية التي تكتب فيها جنين دهمان، وهي من فلسطينيي 48 رواية بعنوان "فلسطيني تيس"، عن والدها محمود دهمان، الذي يهاجر وعائلته من المجدل بعسقلان إلى قطاع غزة خلال النكبة - والذي كان يُديره في ذلك الوقت حاكم مصري - لكنه يرجع سريا إلى المجدل دون العائلة، وفي أعقاب ذلك يتم غلق الحدود بين إسرائيل وغزة، ليفقد عائلته، فيتزوج، ويواجه حياته الجديدة كفلسطيني في حدود دولة الاحتلال، وثم تتابع الحركة الثالثة عندما تراجع جنين روايتها، فيستغرق القارئ في حكايتها التي يعرف منها أنها تحب فلسطينيا من الضفة الغربية، ويتزوجا ويعيشا معا في يافا، بينما يصطدم زواجهما بالقوانين الإسرائيلية التي تجعل استمراره مستحيلا.

"عايش في بلدنا كأني مواطن افتراضي. موجود في السجلات الرسمية، في وزارة الداخلية، عند الأمن العام، بس مش موجود في المؤسسات الحقوقية ولا مؤسسات الخدمة الصحية والاجتماعية."

[1]. مصائر، ص 34

ويختتم المدهون معزوفته بالحركة الرابعة والأخيرة، حيث يعود بقارئه إلى وليد دهمان، زوج جولي، الذي يزور متحف المحرقة في مدينة القدس، ومن هناك، يطل على ما تبقى من قرية دير ياسين متذكرا المجزرة التي ارتكبتها عصابات الاحتلال عام 1948، ثُم يذهب مع جولي إلى يافا ليلتقيا جنين دهمان، ويتعرفا منها على مصادر روايتها، وأسرار حكاياتها، ومصائر أبطالها.

قدم ربعي المدهون في روايته أسئلة عديدة تدور بين ما تعرض له اليهود في محرقة الهولوكوست، وما يتعرض الفلسطينيون كل يوم من قتل ومجازر على يد قوات الاحتلال في أرضهم ، بدت بقوة عندما تخيل دهمان متحفًا مُقابل لمتحف المحرقة يحكي مجازر الاحتلال. وناقش من خلال شخصيات عدة، أحوال من بقوا في الأراضي الفلسطينية بعد النكبة، ومن هاجروا أو تم تهجيرهم، والصعوبات التي يعانيها الفلسطيني في حال أراد العودة، مُستعرضا في روايته تاريخ طويل، يقول ربعي المدهون صاحب الرواية "هذه رواية عن فلسطينيين بقوا في وطنهم بعد حرب 1948 وأصبحوا، بحكم واقع جديد نشأ مواطنين في دولة إسرائيل ويحملون "جنسيتها"، في عملية ظلم تاريخية نتج عنها "انتماء" مزدوج غريب ومتناقض لا مثيل له، وهي رواية عن آخرين أيضاً هاجروا تحت وطأة الحرب ويحاولون العودة بطرق فردية"[1].

وتحكي الرواية في أربعة فصول مأساة الهوية الفلسطينية وأسئلة النكبة وحق العودة، في الرواية شخصيات حقيقية من بيئة واقعية، غادرت ملامحها متخلية عن أسمائها وعن بعض سماتها، لتتمكن من العيش في فضاء متخيل تشبه تفاصيله الحقيقية.

[1]. مصائر ص 7

ووفقاً للمدهون، استغرق إنجاز الرواية أربع سنوات، زارخلالها فلسطين أربع مرات، وعقدت لقاءات وأجريت حوارات، وقمت بجولات ميدانية في كل الأماكن التي جرت فيها أحداث الرواية. الأحداث تجري في ست مدن فلسطينية لم يقم المؤلف في أي منها، لكن جهود الآخرين جعل ذلك ممكناً.

الحركة الأولى: جثة إيفانا:

يبدأ الراوي الرواية بحكاية "إيفانا أردكيان"، الأرمنية الفلسطينية التي تحب طبيبا بريطانيا في زمن الانتداب عن فلسطين، وتهرب من عكا القديمة. تتزوجه وتنجب صبية ترحل بها إلى لندن عام 1948. قبل وفاتها توصي إيفانا بحرق جثتها، وأخذ جزء من رمادها إلى مسقط رأسها في عكا القديمة، أو إلى القدس.

"وأن بيت أردكيان ظل مغلقا على أثاثه ومحتوياته سنوات عدة، بعد رحيل مانويل وزوجته أليس عن المدينة وهما والدا إيفانا، في السادس عشر من مايو 1948، أي قبل يومين من سقوطها بأيدي المنظمات اليهودية. كان البيت من ألف ومائة وخمسة وعشرين بيتاً آخر، ظل سليما بعد انتهاء الحرب، نصفها أصبح اليوم بحاجة إلى ترميم، والقليل منها آيل للسقوط، سقط أحدها العام الماضي على رأس سكانه وقتل خمسة وعرف منها أيضا، أن عائلة يهودية تدعى لاؤور، تضم خمسة أفراد، تسلمت البيت من شركة "عميدار" الإسرائيلية للإسكان، التي تولت و"شركة تطوير عكا"، إدارة خمسة وثمانين في المئة من بيوت المدينة، وفي ما عدته

الدولة أملاك غائبين، وما تزال تسيطر على ستمائة بيت، وتغلق مائتين وخمسين بيتا آخر، وتمنع الفلسطينيين من السكن فيها" [1].

إيفانا هي زوجة الضابط الطبيب الشاب جون ليتل هاوس، الضابط البريطاني الذي يستعمر عكا، تزوج جون وإيفانا بعيدا عن عكا وأهلها، وأقيم لهما حفل صغير في قاعدة بريطانية قريبة من حيفا، حيث زف العروسان وسط ضباط القاعدة وجنودها، وحملت إيفانا وأنجبت "جولي"، وفي مارس 1948، غادرت إيفانا البلاد واختفت من حياة والديها، قيل أن "إيفانا صارت في عهدة الإنجليز"، وأعلنا والديها تبرؤهما من ابنتهما الوحيدة، بعد يوم واحد من هروبها من الحارة. وطلبت ايفانا من ابنتها جولي حرق جثتها بعد وفاتها، تقول: "بعد الانتهاء من مراسم الحرق، تنثرون حفنة من رماد جسدي فوق نهر التايمز، يأخذه من هناك غبارا ويوزعه على مياه المحيط".

وأوصت بوضع حفنة أخرى من رماد جسدها في قارورة زجاجية بطول ثلاثين سنتيمتراً، يكون لها لون البحر صيفاً، وطلبت نقل القارورة إلى بيت والديها في ساحة عبود في عكا القديمة قالت:" خذوا بعضي وكل روحي إلى عكا يعتذران لها حارة حارة، خذوا ما تبقى مني وشيعوني حيث ولدت، مثلما ستشيعني لندن حيث أموت، أريد أن أدفن هنا وأن أدفن هناك". وواصلت: "إن تعذر الأمر لسبب ما، أكون سعيدة لو أخذتما هذا النصف من بقاياي إلى القدس القديمة. أتمنى أن تزورا كنيسة القيامة إن زرتما القدس، وأظنكما ستفعلان حتما صليا لي فقد يطهر ذلك روحي، احرقوا بخورا مقدسا، وانصتوا جيدا الى فيروز ترفع زهرة المدائن إلى أعالي

[1]. مصائر ص 17 - 18

السماء، ولتملأ صرختها المدينة. أنا متأكـدة أننـي سأسـمعها أيضـاً، لأننـي سـأكون هناك في السماء". توفيت إيفانا بعدها باسبوع، وبالفعل نثرت جولي رماد أمها إيفانـا على نهر التايمز، وجعلا جولي وزوجها الفلسطيني"وليد دهمان" فضاء لندن نصـف مثواها الأخير.

وتنفيذا لوصية والدتها، ذهبت جولي ووليد إلى عكا، وهناك عـرف وليـد أن اليهود يدورون على البيوت هناك يعرضون أسعاراً عالية عـلى أصـحابها، وعـرف أن هناك من يبيع بيتـه لأن الفقـر قتلـه، وهنـاك مـن باعـه لكـثرة مضـايقات اليهـود المتدينيين الذين احتلوا عدة بيوت، وعرف أن هنـاك مـن رفـض البيـع تمامـاً وهـم العكّاوية الأصليين، تمسكوا بأرضهم وبيوتم وهويتهم كانوا يصرخون: "مـا عنـاش دور للبيع"، وقال له صاحب فندق في عكا "في ناس برضو حـاطين عـين ع الـوطن وعين ع المصاري الي زي الحلم..طب يشتروها العرب اللي متلتلـين مصـاري! والا خايفين منّا على مصاريهن؟.! وتذكرت جولي ما كانت تقوله لها أمها: "لم يحم عكا ويدافع عنها في لحظات قوة رجالها وضعفهم سوى سورها".

واقترحت جولي على وليد أن يبيعا بيتهم في لندن وينتقلوا للإقامـة في عكـا، قائلة له أنها لن تعارض شراء قطعة أرض في المجدل عسـقلان، مسـقط رأس وليـد، يقيمان عليها بيتاً لهما، إذا كانت هذه رغبته. وسأل وليد نفسه، ما سبب هذا، أهـو الذي حدث خلال الأيام العشرة التي قضياها في البلاد، يقعان في عشـق مدينـة، مـا أن يهتف أحدهما أو كلاهما هذه أجمل مدن فلسطين حتى يعشقان مدينـة غيرهـا، أم أن وصية أمها إيفانا غيرتها. أو لعل عكا نفسها أثرت على جـولي، عكـا بسـحرها

الخاص بتاريخها المحفور على الحجارة، بكنائسها ومساجدها ومبانيها وأسواقها القديمة.

الحركة الثانية: فلسطيني تيس:

تكشف الرواية عن إحدى شخصياتها"جنين دهمان" الكاتبة التي تبدأ في كتابة روايتها "فلسطيني تيس" عن محمود دهمان، الذي يهاجر وعائلته من المجدل عسقلان إلى غزة خلال نكبة 1948. تلاحقه المخابرات المصرية.

يترك عائلته ويعود سراً إلى المجدل. تُرسَم الحدود بين إسرائيل وغزة، ولا يتمكن محمود من استعادة عائلته الصغيرة. يتزوج من امرأة ثانية، ويعيش حياته الجديدة فلسطينياً في "إسرائيل." بينما تراجع جنين "فلسطيني تيس" روايتها، يروي السارد حكايتها هي: أثناء دراستها في أمريكا تحب جنين الفلسطينية/ الإسرائيلية باسم الفلسطيني من الضفة الغربية. يتنقلان إلى يافا. يتزوجان ويقيمان في قلعتها القديمة. يكافح الزوجان الشابان لإنقاذ زواجهما من قوانين إسرائيلية تجعل استمراره مستحيلاً.

تقول جنين: عدت إلى البلاد كعادتي بجواز سفري الإسرائيلي، عبر مطار بن جوريون في اللد، ووصل باسم بجواز سفره الأمريكي عن طريق مطار عمان في الأردن، كانت طريقة العودة تلك، أول حقائق زواجنا المضطرب، إذ توجب علينا منذ ذلك الحين السفر منفصلين في كل مرة نغادر فيها البلاد، والعودة إليها منفردين. بعد عام من زواجنا بدأ باسم يختنق بتفاصيل حياته اليومية التي

استحالت مللاً مبرمجاً لا حق له في العمل ولا إذن له بـذلك أصـلاً، لا يتمتـع بـأي شكل من أشكال الضمان الصحي أو الاجتماعي لا حقوق له [1].

لكن جنين ظلت تسانده وتشد من أزره، جنين هي قريبة وليد دهـمان روت لباسم أنها حكت لوليد الروائي المقيم في لندن عن مأساة الفلسطيني أو الفلسطينية الذي يملك جواز سفر إسرائيلي وتزوج من الخارج أو حتـى مـن الضـفة الغربيـة أو غزة. رد وليد: "إسرائيل اللي شايفاها يا جنين مرحلة عابرة في تاريخ فلسطين".

طلب باسم من جنين أن تنتقل معـه للعـيش في بيـت لحـم، لكنهـا رفضـت قائلة أنها بخروجها ستخسر صبر ستين سنة من عمر أهلهـا، تحملـوا فيهـا الكثـير حتى لا يهاجروا أ ويتركوا البلد لليهود.

وأعلنت جنين: لن أرحل من يافا، إن قرر باسم الرحيل فليرحـل وحـده، أنـا لن أترك ما لي وما بنيته لمهاجرين يأتون من بلاد لهم إلى بـلاد ليسـت لهـم، يرثـونني وأنا على قيد الحياة، كانت تبكي وتقول: "يا ربي مش معقول الغربة تجمعنا ويفرقنـا الوطن.. يا إلهي كم أصبحت يافا قاسية علينا، لم تعد تطيـق فلسـطينيين ولـدا في مكانين مختلفين يعيشان فيها معا.

ونعرف في الرواية، أن جنين تعرفت على باسم عبر النت، التقيا في واشـنطن، واتفقا على العودة إلى البلاد معا لزيارة كل مـنهما ذويـه أولاً، هـو إلى بيـت لحـم في الضفة الغربية، ثم تزوجا على شواطئ مدينة يافا. وكذالك يلاحظ الدارس أن "باقي

[1] . مصائر، ص 88

هناك" الشخصية الرئيسية في رواية جنين هو أبيها محمود دهمان، الذي هجر يافا لكنه لم يطق الابتعاد عنها أكثر من شهرين، وعاد ليتزوج من أم جنين.

الحركة الثالثة: باقي هناك:

تذكر "باقي هناك" ما قرأه ذات مساء في التلمود تزحف جثة اليهودي الذي مات خارج فلسطين بعد دفنها تحت الأرض إلى أن تصل إلى الأرض المقدسة وتتوحد معها. عّلق: ما شاء الله، والفلسطيني اللاجئ ما بيصلها لا حي ولا ميت لا زاحف تحت الأرض ولا ماشي على رجله، ولا حتى هابط عليها م السما.

نعرف من جنين أن باسم في الرواية يترك جنين ويرحل عن البلاد عائداً إلى الولايات المتحدة قائلاً لزوجته جنين في المطار: هذا المجتمع غير ناضج للتعايش، لا بدو إيانا نروح عنده ولا حابب يجي لعنا أبدا.

أما زوجها الحقيقي باسم فيعمل منذ فترة مدرسا في جامعة بير زيت، ووضعه جيد لأنه رفض الاستقرار في يافا وكان يقول لها قبل أن ينتقل للعيش في رام الله: "أنا حبي في يافا وأحلامي في بير زيت"، وأصبح زواجنا ترانزيت مرة يجي لعندي ومرة أروح عنده، صارت حياتنا "تيك اواي".

وتحكي جنين لوليد نهاية روايتها وكيف أن "باقي هناك" يخرج من بيته حاملاً يافطتين علّق عليهما صورتين، واحدة من مذابح دير ياسين، والثانية من مذابح جرت للهيود في كييف، وذهب إلى ميدان رابين.

وقف باليافطتين مرفوعتين بين يديه عالياً، وكان في الميدان أكثر من نصف مليون إسرائيلي، يقيمون مهرجاناً لتجمع قوى يمينية متطرفة، احتفالاً بفوز حزب يميني متشدد في الانتخابات النيابية، ثم راح يغني "النشيد الأممي" وانطلقت رصاصة فسقط باقي هناك أرضاً ودمه يغطي يافطتين خشبيتين محطمتين إلى جانبه.

مات محمود دهمان "باقي هناك"، الرجل الذي رفض الهجرة من البلاد عام 1948 في الواقع وفي الرواية، على الرغم من الحرائق والدمار والموت والخوف والقتل الذي انتشر كعاصفة هوجاء تحصد كل شئ، لكنه لم يمت في الحقيقة بل حمل يافطتيه وغادر الساحة ومشى بعيداً عائداً بيافطتيه اللتين لم ينظر إليهما أحد.

الحركة الرابعة: يد فشم:

يزور وليد متحف المحرقة يد فشم في القدس، كما نفذ وصية إيفانا بوضع بعض رماد جسدها عند عائلة فلسطينية تعيش في القدس، على أنغام زهرة المدائن.

تعرفنا الرواية على ملامح المدن الفلسطينية، وما أجراه الاحتلال الإسرائيلي من تغيير فيها، ثم تنتقل الرواية إلى متحف ضحايا المحرقة النازية يد فشم حيث كان وليد يريد أن يعرف الفرق بين الحرق في أفران الغاز أو الحرق بصواريخ الأباتشي؟.

نعرف أن محتويات المتحف تتوزع على قاعات مصممة بطريقة فنية رائعة، توقف وليد أمام عديد من الطاولات التي تقدم معلومات من خلال كتيبات أو

أجهزة كمبيوتر، استوقفته قاعة الأسماء، يقول: في تلك اللحظة أطلت علي وجوه آلاف الفلسطينيين الذين عرفت بعضهم ولم أعرف الكثيرين منهم، كانوا يتزاحمون كمن يرغبون في النزول إلى قاعات المتحف والتوزع عليها، واحتلال أماكنهم كضحايا، حزنت على من هم منا ومن هم منهم، وبكيت على أولئك المتزاحمين في السماء يبحثون عن مكان يلم أسماءهم، وهمست لي كمن يعاتبني أو يعاقبني.

تابع وليد السير حول المبنى، ووجد مجموعات تنتظر في طبور وعرف أنهم يريدون زيارة متحف "ذاكرة الفلسطينيين"، الذي بُني حديثاً في أعقاب المصالحة التاريخية التي وقعت قبل سنتين فقط بين الشعبين في البلاد، وأنهت صراعاً دموياً استمر أكثر من مئة عام، شعر وليد حينها بجدوى زيارته "يد فشم"، كان يسأل عن "دير ياسين" قائلاً في نفسه أن من لم يفهم ما جرى في دير ياسين ويحفظ درسه جيدا، لن يفهم ما جرى لأولئك الضحايا في "يد فشم."

وتؤكد الرواية أن أولئك الذين يقدمون أنفسهم كضحايا النازية استعانوا بممارسات أكثر نازية من تلك التي اقترفت بحق بعض منهم، وقاموا بتطبيقها على الفلسطينيين، وخلفوا كثيرا من المحارق بحقهم، عرف وليد أن دير ياسين أصبح مكانها متحف ذاكرة الفلسطينيين. وتختتم الرواية ولم يحسما وليد وجولي أمر عودتهما إلى فلسطين، فعادا إلى لندن ليناقشا الأمر .

يذكر أن الروائي ربعي المدهون استعان باسمه كشخصية روائية، بما يوحي أنه يكتب محطات من سيرته الذاتية، وليس سهلاً على فلسطيني يكتب الرواية، أن

يحمل جديداً إلى قضية شعبه التي اقترنت بالمأساة منذ ولادتها، وظلت تدور في هـذا الفلك لأنها لم تعرف حلاً عادلاً يخرجها من النطاق المأسوي ويُعيد الفلسطينيّ إلى حياته المعتادة التي فقَدها منذ نكبة 1948. إلا أن حيوية الأدب الفلسطيني المعاصر حققت إنجازات في الشعر والنثر حررت هذا الإبداع من ضيق "الواقعيـة الملتزمـة"، ودفعت به إلى آفاق تزاوج بين مأسوية التـاريخ ورحابـة المشـاعر الإنسـانية المتـدثرة بجمالية تعلو على السياقات الظرفية. والـروائي ربعـي المـدهون ينـدرج ضـمن هـذه الكوكبة من المبدعين الذين يعون جيداً أن الشكل، في كل تعبـير، يكتسي- أهميـة قصوى لأنـه يسـعف عـلى التقـاط خصوصـية التجربـة وعـلى اسـتنطاق الجوانـب والمشاهد المهملة داخل الإطـار العـام نتيجـة إيـلاء الانتبـاه إلى التجليـات الكـبرى للموضوع المستوحى في الرواية.

إنهـا روايـة الفلسـطينيين المقيمـين في الـداخل ويعـانون مشـكلة الوجـود المنفصم، وقد وجدوا أنفسهم يحملون جنسية إسرائيلية فُرضت عليهم قسراً. وهـي رواية الفلسطينيين الذين هاجروا من أرضهم إلى المنفى الكبير ثـم راحـوا يحـاولون العودة بطرق فردية إلى بلادهم المحتلة[1].

[1] . أنظر المدن – "مصائر" ربعي المدهون تفوز بـ "بوكر" للرواية العربية

الفصل الثاني

مكانة رواية " مصائر" لربعي المدهون بين الروايات المماثلة المعاصرة الأخرى

مرت الرواية الفلسطينية بمراحل عدة على يد الكتاب والشعراء منذ غسان كنفاني ويحيى يخلف وتوفيق طوبى وجبرا ابراهيم جبرا وغيرهم سميح القاسم ومحمود درويش وعشرات المثقفين الآخرين، سواء من أبنائها أو الذين استوطنوها ثقافيا، وصولاً إلى الروائي ربعي المدهون الذي وصلت روايته الأخيرة "مصائر... كونشرتو الهولوكوست والنكبة" إلى القائمة القصيرة للبوكر العربية، وهو صاحب روايات "حكايات طعم الفراق"و"السيدة من تل أبيب" و"أبله خان يونس". وما الذي يميز كتابات المدهون مابين الكتاب والروائيات الأخرى هو تحليلها الدقيق للعلاقة ما بين الفلسطيني و تمتاز أعماله الروائية بخوض غمار الغربة والمنفى في شخوص رواياته.

ورواية "مصائر" تتميز بأسلوبها الشيق وبلغتها الجميلة، وبممازجة اللهجات العامية حين الحاجة الملحة بين أقواس وبين لغة الرواية العربية الفصيحة، وقد لجأ الكاتب أحيانا للرمزية والتخيل كثيراً مما يثير مخيلة القارئ ودفعه لمعاودة القراءة لفقرات أو فصول، والرواية حفت بالغموض وكل رواية تخلو منه لا تكون رواية إن لم تدفع القارئ للتفكر والتأويل.

ورواية "مصائر" تستحق القراءة والاهتمام بها رغم ما يمكن أن يختلف القارئ أو يهاجم على الكاتب أو يتفق معه ببعض من المسائل، إلا أنها حقيقة تحمل

الكثير من الأفكار عبر صفحات الرواية، وهذا الخلاف أو الاتفاق يبشر- بمستقبل للرواية ويؤكد أن ربعي المدهون بدأ يعتلي القمة بين الروائيين.

وتضيء الرواية على معاناة الفلسطينيين الذين غادروا بلادهم من الإضطهاد، ومنعوا من العودة إليها، وكيف أن الذين بقوا فيها أصبحوا بحكم الواقع الجديد مواطنين في دولة إسرائيل ويحملون جنسيتها، لكن أي فلسطيني غادر بلاده واستطاع العودة بطريقة ما، فإنه "سيستجدي حق إقامته في بلده من غرباء استولوا عليه".

ويشير الكاتب ربعي المدهون في روايته "مصائر" إلى الهولوكوست، ويقدّم شخصية يهودية هي أفيفا، عايشت المحرقة وكانت من بين الناجين منها، لكن ألم الذكرى ما زال يؤرق مناماتها، وأطياف المشاهد المروعة ما زالت تعيش حولها، وتقلب أيامها إلى شقاء دائم. هذا ما جعل جارها باقي هناك، يتعاطف معها ومع مأساتها، ويصادقها رغم أنها حاولت ذات مرة حرق بيته.

وتبلغ معالجة الروائي لهذه النقطة ذروتها، حين يزور بطله وليد دهمان متحف "يد فشم" لضحايا الإبادة الألمانية، وهو متحف يطل من إحدى جهاته على ما تبقى من دير ياسين، فيتخيّل وليد وجود متحف مقابل يدعى متحف ذاكرة الفلسطينيين، يوثق لضحايا المجازر التي ارتكبتها إسرائيل. وتبدأ تساؤلاته حول موقف ضحايا النازية من ضحايا القصف والمذابح الإسرائيلية، وعن الفرق بين الحالتين.

مكانة الرواية:

وفي مؤتمر تم عقدها من ملتقى الرواد الكبار في العاصمة الأردنيّة بعمان، قال الناقد الكبير الفلسطينيّ د. فيصل درّاج لصحيفة الغد: " إن المدهون عمل على إنتاج رواية فلسطينية شاملة، فكتب عن فلسطين التي كانت مسقط رأسه، وعن الفلسطينيين الذين هاجروا إلى أماكن بعيدة، وقرأ أسى الفلسطينيّين في المنفى، حيث الإقامة في اللّا إقامة، ومنفاهم الساخر داخل فلسطين وغزة، وهؤلاء الموزعين على أكثر من مكان وإقامة وتذكر، وأكمل المشهد الرّوائيّ بحوارٍ بين عذابات الفلسطينيّين والهولوكوست، معطيًا في التّحديد الأخير التزامًا بفلسطين، لا التباس فيه ولا مساومة"[1]

وقال أيضا: " أنّ المدهون عالج قضيّته الوطنيّة بمنظور عميق، وعبّر عنها إبداعيا بتقنيّات جديدة ، وبلغة تنوس بين الشّعر والفلسفة، مبينا أنه انتسب في اجتهاده اللّامع إلى الفلسطينيّين الكبار الثّلاثة: غسان كنفاني ، الراسم الرّهيف لمعنى المأساة في روايته، وإميل حبيبي في نثره الجميل الّذي لا يضارع، وجبرا إبراهيم جبرا الواسع الثـــــقافة المتعدد التّجربة. لكن كتابة ربعي أضافت إلى هؤلاء جميعا جديدًا لم تعرفه الرّواية الفلسطينيّة"[2]

وقال عند ختام المحاضرة: " أنّ المدهون لا ينتمي في "مصائر" إلى الجيل القديم، فهو يقول ببداية تستمر في بدايات، فلا مكان للخاتمة أولقول أخير، بداية تستمرّ من العام 1948 إلى اليوم، وليس في روايته ما يضعها إلى جانب " الرّواية الغاضبة" (أعمال سامية عيسى، ومايا أبو الحيّات، وعاطف أبو سيف، وإياد

[1]. ما قالوه عن مصائر ربعي المدهون - www.arab48.com/

[2]. نفس المصدر

برغوثي)، فهي تتـذكّر وتتأمّـل وتحـاور " زمنًـا معلقـا " لا تتّسـع لـه روايـة مفـردة النّظر"[1].

ويقول الكاتب أحمد صوان المصري حول مكان الرواية ومضمونها المركزي في مقالة بعنوان " كونشرتو ربعي المدهون... معزوفة ما بعد النّكبة " ويقـول " يضـيئ الكاتب الفلسطيني ربعي المدهون جانبـا مـن معانـاة الفلسـطينيّين عـبر التـاريخ، بداية ممن غادروا بلادهم التي منعوا مـن العـودة إليهـا، وآخـرين اضـطروا للبقـاء، فأصبحوا بحكم الواقع الجديد مـواطنين في دولـة الاحـتلال ويحملـون جنسـيّتها، ليتجاوز في حكايته عرض القضيّة الفلسطينيّة، عارضًا الحياة اليوميّـة تحـت ظـلّ الاحتلال لفلسـطينيّين أصـبحوا رغـمًا عـنهم مـواطنين في " الكيـان الصّـهيونيّ" ، وكذلك حال من استطاع العودة بطريقة ما ليستجدي حق إقامته في بلده من غرباء استولوا عليه، وفي الوقت نفسـه يُمْطـر قارئـه بأسـئلة حـول مجـزرة الهولوكوسـت، ومجازر الاحتلال.

ويضيف: طرح المدهون في روايته أسئلة عديدة تتمارس بـين مـا تعـرّض لـه اليهود في محرقة الهولوكوست، وما تعرّض لـه الفلسـطينيّون مـن مجـازر عـلى يـد قوّات الاحتلال، بدت بقوّة عندما تخيـل دهـمان (المحـرّر: بطـل الرّوايـة)، منحفـا مُقابلًا لمتحف المحرقة، يحكي مجازر الاحتلال، وناقش من خلال شخصـيّاتٍ عـدّةٍ، أحوال من بقوا في الأراضي الفلسطينيّة بعد النّكبة، ومن هـاجروا أو تـمّ تهجـيرهم، والصّعوبات الّتي يعانيها الفلسطينيّ في حال أراد العودة، مُستعرضًا في روايته تاريخًا طويلًا، ملأت فراغات حكاياته الرّئيسيّة قضـايا ثانويّـة، بـرزت مـن خـلال تقنيّـات عديدة في كتابة الرّواية نفسها".

[1]. نفس المصدر

وسلّط الكاتب خالد جمعة الضّوء على تقنيّة الكونشرتو الموسيقيّة الّتي أقام ربعي المدهون بنية روايتها عليها، في مقالةٍ بعنوان "عن مصائر ربعي المدهون والهولوكوست والنّكبة"، واعتبر أنّ "مصائر" المدهون تتحرّك من خلال عدّة مسارات، على طريقة الكونشرتو الموسيقيّ، وربّما من الأفضل تعريف " الكونشيرتو" حتّى تسهل متابعة خطوط الرواية، حيث أنّها المرّة الأولى الّتي يستخدم كاتب عربي، على حدّ معرفتي، هذه التّقنيّة في كتابة رواية.

وقد عرّف جمعة الكونشرتو قائلًا: " هو نوع من التّأليف الموسيقيّ، يوضع لآلة واحدة أو لعدّة آلات، حيث تقوم الآلة أو الآلات بأداء دور رئيسي، وبقيّة الآلات تكون مرافقة في الخلفيّة، وكونشيرتو تعني الكفاح باللّاتينيّة، وتعني إشراك عدّة أصوات معًا، ويتألّف "الكونشيرتو"عادةً من ثلاثة أجزاء".

وأضاف: " إنّ التّركيز على مسارات الغربة والنّكبة والبقاء في الأرض المحتلّة ومأساة تشتّت العائلات ورغبة البعيدين في القدوم إلى أرضهم، شكّلت جميعها مع أحداثٍ أخرى قوام الفرقة الموسيقيّة التي أدّت "الكونشرتو"بحركاته الأربع.

وحول مدى نجاح المدهون في التّقنيّة الّتي استخدمها المدهون في تحوّلاته وتجوّلاته، تناغمت تماما، صعودا وهبوطا وفرحا وإحباطا، مع تقنيّة الكونشرتو، ومع أنّها تقنيّة مرهقة بالنّسبة لرواية، إلّا أنّ المهمّ في النّهاية هو الإجابة على سؤالٍ وحيدٍ: هل يؤدّي العمل بهذه الطّريقة وظيفته ورسالته أم لا ؟ والإجابة في حالة ربعي المدهون هي "نعم" جازمة، فقد حوّل المدهون في روايته كلّ الكتل الرّوائيّة عن تاريخ فلسطين وحاضرها إلى تفاصيل يمكن رؤيتها ولمسها، ولا أظنّ أنّ أيّ كاتبٍ يسعى إلى أكثر من أن يُرى المكان والتّاريخ من خلال ما يكتب، بل ينهي

الرّواية على سؤال حين يقول في الصّفحة الأخيرة: ونهض الزّوجان وفي فميهما نقاش".

وتطرّق الدّكتور عادل الأسطة، في مقالة له بعنوان "أدب العائدين/ الزّائرين: ربعي المدهون "مصائر" إلى حضور الهولوكوست والمجازر بحقّ اليهود في أوروبا في الأدب الفلسطينيّ: " العنوان الفرعي للرّواية، وجمعه بين الهولوكوست والنّكبة، وما أدرج في الرّواية من كتابة عن مآل بعض النّاجين من معسكرات الإبادة، ومآل بعض النّاجين من مجزرة دير ياسين، أعادني إلى ظاهرة لافتة في الأدب الفلسطينيّ بدت خافتة، ثمّ أخذت تظهر إلى السّطح أكثر وأكثر، بخاصّة في أدبيّات ما بعد أوسلو، وهي الكتابة عن المجازر الّتي تعرّض لها اليهود في أوروبا، وتحديدًا في ألمانيا النّازيّة.

في حدود ما قرأت، فإنّ أوّل نصٍّ روائيٍّ فلسطينيٍّ أتى على ألمانيا النّازيّة، هو رواية 'في السّرير (1946) لمحمّد العدنانيّ، وكان طريف/ العدنانيّ زار ألمانيا أيّام هتلر، فمدح الألمان وذمّ اليهود. وأمّا النّصّ الثّاني الّذي لفت نظري فهو رواية ناصر الدّين النّشاشيبيّ، "حيّات البرتقال" (1964)، وفيها يتعاطف الفلسطينيّ سابا مع اليهود، ويُسجن في سجون النّازيّين لهذا، وعند انتهاء الحرب يرحل إلى فلسطين بحجّة أنّه كان نازيًّا. علمًا بأنّه ضدّ النّازية والصّهيونيّة معًا. بعد 1967، ستكون رواية كنفاني "عائد إلى حيفا" (1969) أتت على الضّحيّة الّتي تحوّلت إلى جلاّد. ضحايا النّازيّة يعاقبون الفلسطينيّ ويطردونه من أرضه ويحتلّون بيته. وسيكرّر محمود درويش في " مديح الظّلّ العالي" (1982) سطره اللاّفت: "ضحّيةٌ قتلت ضحيّتها/ وصارت في هُويّتها"، وغالبًا ما يُذكّر اليهود/ ضحايا النّازيّة بأنّهم ينسون ما ألمّ بهم هنا، وأنّهم يمارسون مع الفلسطينيّين ما مورس، ولو جزئيًّا، معهم.

وقد أخذ الشّاعر طارق العربيّ النابلسي- في مقالة بعنوان "مصائر.. رواية بأجوبةٍ مستعملة، على الرّواية أنّها لم تحمل مقولةً جديدةً، ولم تطرح البديل، على عكس رواياتٍ فلسطينيّةٍ سابقةٍ تناولت نفس القضايا، يقول: " ليست مشكلة الرّواية أنّها تتحدّث عن الإنسان الإسرائيلي الّذي نجا من المحرقة النّازيّة، وجاء ليستوطن في فلسطين، ولا في تعاطف الفلسطينيّ معه أو سخريته من مصيره، وليست في محاولة تقديم إجابة على سؤال الضّحيّة للضّحيّة، ولا في الأخطاء المكانيّة والزّمانيّة التّاريخيّة فيها، المشكلة كانت في عدم وجود صيغة فكرية يقدّمها الكاتب. كانت هناك حكايات أكثر، مصائرُ مختلفة لفلسطينيّين شرّدتهم النّكبة، أتاح لها قالب الكونشرتو الموسيقيّ أن تكون حيّزًا للقاء، لكن الرّواية لم تحمل مقولة، مع أنّها امتلكت أفقًا لذلك، وكان من الممكن لكاتبها أن يجمع الاجتهادات في فضائها، لكي يقول التّاريخ نفسه من وجهة نظر الرّواي، أو من وجهة نظر أبطالها".

ويضيف: "وإن كانت الرّوايات الفلسطينيّة السّابقة كـ "عائد إلى حيفا" و"المتشائل"، سجّلت حضورها المستمرّ في المشهد الرّوائي الفلسطيني، فهي فعلت ذلك من قدرتها على جرأة الخيار، وطرق الباب بالتّوازي مع الجرأة في طرح الواقع والبديل، بحيث مثلت هذه الروايات إضاءات مبكرة على الفلسطيني الّذي طُرِدَ مع النّكبة، والفلسطينيّ الّذي بقي هناك، إذ قدّمت رؤيتها الخاصّة وسيرتها ولغتها، بالتّوازي مع مواقف الكاتب نفسه ممّا يجري حوله. وبهذا تبرز مشكلة "مصائر" في خلوّها من هذه الدّلالات والمواقف، فعلى الرّغم من جماليّة الأسلوب ومتعته الّذي وفّره القالب، إلّا أنّ الرّواية جاء ت كدلالةٍ أخرى على التّيه الفلسطينيّ وعدم قدرته على المجابهة، أوتقديم أجوبة جديدةٍ لأسئلة قديمة.

وركّز الشّاعر رشدي الماضي (حيفا) على الخصائص الفنّيّة في رواية المدهون، في مقالةٍ بعنوان "مصائر ربعي المدهون: بناء الأحداث وفينومينولوجيا الوعي في صحيفة الأيّام، مشيرا إلى أنّ الرّوائي 'قدّم عملاً أدبيًّا قويًّا، في بنية روائيّةٍ استعاريّةٍ متماسكةٍ، وحبكةٍ محكمةٍ ومثيرةٍ، وشخصيّاتٍ عميقةٍ ومترابطةٍ، استحضر من خلالها، الأحداث المتّكئة على مساحات الذّاكرة، المُشبعة بالأماكن والأفراد والتّفاصيل، في أماكنَ رئيسةٍ عدّةٍ من الوطن، صاغها في تقابلٍ بين الأجزاء وارتباطٍ متبادلٍ، كأنّ قوّةً جاذبةً شدّت الفصول إلى بعضها البعض، وجعلتها تدور في أفق وفَلَك واحد. أتَتْ (الرّواية)، بلغةٍ انزياحيّةٍ عن التّاريخيّ، وأحيانًا عن الواقعيّ، بإيحائيّةٍ منفتحةٍ على التّعدّد، بأسلوب سلس جذّاب ومشوق، وزمن متحرّكٍ، وتداخلٍ وظيفيٍّ بين الخيال والواقع، وسردٍ أفقيٍّ وعموديٍّ، وهيمنة السّارد بضمير المتكلّم المفرد بصورةٍ بارزةٍ. وأضاف الماضي: بهذا المعنى، تعدّ رواية المدهون، ممتلئةً وباذخةً بالمحكيّات والمعلومات المتعدّدة المثقلة بالتّاريخ والجغرافيا، وكذلك بالرّمزيّة والمجازات، والصّور، والمواقف الفنّيّة المستمدّة من الواقع. بالإضافة إلى الإيحاءات والدّلالات والألفاظ المأنوسة، الّتي أتَتْ بأسلوب السّيمولوجيا، أي العلامة، وهي أيّ شيءٍ قابلٌ لأن يخلق معنًى لأيٍّ كان، شرط أن تكون له دلالة. وفي هذا عاد الكاتب وأثبت بأنّ الحياة استعارة لغوية، ولا هُويّة لنا خارج فضاء اللّغة، فهي مقامنا أنّى حللنا سفرًا ورحيلًا. وقد أجاد المؤلّف وأبدع حين ترك القارئ يجول جولات استدلاليّةً في متن نصّ الرّواية، بحدّتها المتصاعدة، وأوقفه بشكلٍ مشوّقٍ أمام نهايةٍ مفتوحةٍ.'[1]

[1]. ما قالوه عن مصائر ربعي المدهون - /www.arab48.com

وعن مسألة الهويّة وتناقضاتها الّتي تواجهها شخصيّات الرّواية، كتب يزن الأشقر الأردنّي في مقالةٍ بعنوان " رواية مصائر: كونشيرتو الهجرة والعودة " وكلّ الشّخصيات (وحتّى الثّانويّة منها) تتواجه مع مفهوم الهويّة والعودة على طريقتها، وتتواجه أيضا ثنائيّات مختلفة داخل حركات الرّواية الأربع: الهجرة والعودة، فلسطينيّ الـ 48 وفلسطينيّي الضّفّة الغربيّة، الفلسطينيّ والإسرائيليّ، العربيّ واليهوديّ، الضّحّيّة والضّحّيّة. يمزج المدهون في "مصائر" الواقع الفلسطينيّ المتمثّل بحيوات شخصيّاته المختلفة، بأسلوب تجريبيٍّ يسرد التّاريخ ويقدّم الواقع دون تكرار لمعالجاتٍ أدبيّةٍ مملّة. هي رواية هجرةٍ داخليّةٍ وخارجيّة، وتهجير وتوطين إجباري، وكل يحاول العودة. نحن بحاجةٍ لإعطاء ربعي المدهون حقّه كمجدّد فعلي في الرّواية الفلسطينيّة، والوقت والنّقد سيثبتان أهمّيّته، إن لم تفعل الجوائز.

وقد جاءت في المقالة إشارات عديدة لمميّزاتها الفنّيّة والتّقنيّة، إذ يكتب الأشقر: 'في الرّواية ابتعاد واضح عن البكائيّات السّرديّة الفلسطينيّة التّقليديّة لصالح سردٍ يستعيد التّاريخ، ولا يخلو من تساؤلاتٍ مبطّنةٍ بسخريةٍ سوداء، قد تُحْضِرُ إلى الذّهن مقاربةً سينمائيّةً مع المخرج الفلسطينيّ إيليا سليمان، وأسلوبه في التّعليق الصّامت على عمله بظهوره في الفيلم، وهو ما يفعله المدهون في الحركة الثّالثة من الرّواية، كنوعٍ من استخدامٍ بسيطٍ وسريعٍ لأداة إدراج النفس الأدبيّة.

الفصل الثالث

دور روايـة "مصـائر" في صـحوة الحنـين الـوطني للفلسـطينيين في المهجر

وقد يبدو من صورة غلاف الكتاب أن باب البيت كصورة غـلاف عـلى مـتن الكتاب صورة متخيلة لباب منزل أردكيان إحدى الشخصيات المحوريـة في الروايـة. وتبدو رواية " مصائر" في بعض مفاصلها، مرة وأكثر من مأساة، لمرارة النكبة نفسها، التي تتوالد كل يوم في حياة الفلسطينيين منذ أكثر من 66 عاما. وهي التي جعلـت حياة الفلسطينيين منافي ومهاجر. واتخذت الرواية من الشـتات ثيمـة رئيسـية لهـا يقارب مدلولها المعني الكامن في عنوانها. في "مصائر"، عمدت إلى مـا أطلـق عليـه فيصل دراج، "بلاغة الحنين"، التـي رسـمت النكبـة، والقضـية في أبعادهـا كلهـا، لكني حرصت على إبعادها عن سطوة النوستالجيا والميلودراما.

ووصف بسيسو الحنين في "مصائر" ربعي المـدهون، بـ"الحنين الفعّـال" أو "المتفاعل". وقال إن الكاتب لا يتوقف فقط أمام المكان، بـل يفـتح أسـئلة المصـير، والبقاء، والهجرة، وغيرها أمام هذا المكان، في رحلة عودة إلى ما قبل النكبة، بتقنية سردية أراد لها أن تماثل حركات "الكونشيرتو"[1].

وقال في إحدى الحوار بالقنـاة العربيـة الـروائي ربعـي المـدهون عـن سـؤاله بمفهوم الحنين في روايتة "مصائر"، أجاب صاحب الرواية: " تناول موضوع الحنـين في روايتي (مصائر)، جاء للخروج من الحالة التـي اعتـدنا عليهـا في التعـاطي مـع

[1] . كونشيرتو الهولوكوست والنكبة في متحف درويش/ الشرق الأوسط، 30 أغسطس 2015.

الأمور في بلادنا، ولكسر مفهوم الارتباط بالحنين التقليـدي، والخـروج مـن حالـة البكاء على ما كان، وإعادة توظيف المكان، الذي تركه أصحابه، بمسائلته ومساءلة أصحابه الذين تخلوا عنه، إعادة رسم الصورة مجـددًا بشـكل واقعـي، وأكـثر فهـما للقضية الفلسطينية واستيعابا للمشـاعر الإنسـانية، ومشـاعر الفلسـطيني نفسـه الذي يعود إلى بيته، ويتعرف عليه بخجل شديد، مع أنه صاحبه. حاولـت الخـروج بشكل آخر من الحنين المغلف ببلاغة لغوية تنقل القـارئ إلى عـالم آخـر لم يعتـد عليه. وهذا النوع من الحنين هو ما ينبغي أن نتعاطى معه بصورة فنيـة، وفي إطـاره الفني".[1]

ورواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوسـت والنكبـة" للـروائي ربعـي المـدهون الكاتب الفلسطيني عمل مركـب مـن الواقعيـة والتخيـل الافـتراضي، وسـعى فيـه الكاتب إلى توثيق أدبي لكثير من مآسي الفلسطينيين وآلامهم وتشردهم ومصائرهم.

وإنها روايـة الفلسـطينيين المقيمـين في الـداخل ويعـانون مشـكلة الوجـود المنفصم وقد وجدوا أنفسهم يحملون جنسية إسرائيلية فُرضـت علـيهم قسرا. كـما أنها رواية الفلسطينيين الـذين هـاجروا مـن أرضـهم إلى المنفـى الكبـير ثـم راحـوا يحاولون العودة بطرق فردية إلى بلادهم المحتلة.

وهـي روايـة تبـدّد الأوهـام التـي قـد تكـون لا زالـت قائمـة لـدى بعـض الفلسطينيين تجاه إسرائيل المُسـتَعمِرة ومزاعمهـا الديموقراطيـة؛ ذلـك أن تفاصـيل العيش بالنسبة إلى من يعيشون في ظل "السلطة الوطنية" التي لم تحصل بعد عـلى اعتراف بدولتها، أو بالنسبة إلى من هم حاصلون على جنسـية إسرائيليـة، تؤكـدُ أن إسرائيل لا تريد سلاماً ولا اعترافاً بحق الفلسطينيين في الاستقلال، بل تبرهن يومياً

[1]. نفس المصدر

على تشبثها بسياسة العنف الاستعماري ومصادرة الحريات، والإمعان في التمييز العنصري. ومن ثمّ أصبح جميع الفلسطينيين يعيشون مأساة الاحتلال والشتات والقهر، على قدم المساواة، بخاصة بعد أن تبدد وهْمُ المواطنة عند فلسطينيي 48 الذين اختاروا البقاء بعد النكبة. وهذا ما رسمته "مصائر" عبر مسار محمود دهمان، ومن خلال تجربة وليد وبَاسم وجنين الذين يعيشون ممزّقين بين العودة إلى الوطن المحتل، أو البقاء في الغربة. وهو تساؤل يُحيل أيضاً على معضلة الهُوية الممزقة، المحاصرة بتفاعلات شتى ضمن صيرورة تطاول جميع الشعوب والمصائر البشرية... كل ذلك يصلنا عبر إنجاز سردي متنوع، وشكل روائي مفتوح على مرايا جمالية تتبادل الرؤية، وتفسح المجال للسخرية واستحضار المشاعر الإنسانية التي يحتمي بها من يعاني من الاستعمار والقهر لكي لا تتلّبسه وحشية المستعمِر الجلاد الذي يتناسى مأساته حين كان، في الأمس القريب، ضحية الهولوكوست.

خاتمة

"سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِه لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ". (سورة بني اسرآئيل، آية 1)

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، والشكر أولا لله العلي القدير الذي فتح علي وأكرمني بإتمام هذا البحث وسهل لي كل العقبات وألهمنى الرشد. فكان البحث في البداية عملا شاقا جدا ولكن الله سبحانه وتعالى يسر لي هذا العمل.

ومن منا لا يعرف أن أبناء الإسلام اليوم يتعرضون لشتى أنواع من القهر والتعذيب والتنكيل والاتهامات بالإرهاب والتطرف والتشدد وتتعب القوى المعادية للإسلام والمسلمين حملة العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين.

وشكلت قضية فلسطين من أهم الموضوعات والأغراض الأدبية في الأدب العربي المعاصر، وهي على أقل تقدير مثلت خلال القرن العشرين أرضا خصبا في وجدان الأمة العربية والإسلامية. ومأساة فلسطين منحت الأدب العربي رواية وديوانا دمويا ضخما، وكتبت الحروب الصليبية والمقاومة الفلسطينية ولا تزال حتى يومنا هذا في تضخم مستمر، وازدادت ملحمة الدم في فسطين غنى واتساعا.

وقد أحرق الفلسطينيون دماءهم لصيانة الدولة من اليهود، وألف الكتاب ديوانهم حول قضية فلسطين، ولسنا نجد في زماننا قضية كتبت فيها مئات الكتب، وألقيت بشأنها ألوف من المحاضرات والخطب والقصائد، وحبرت عنها عشرات الألوف من المقالات والكلمات، وعقدت من أجلها مئات الاجتماعات ثم تلتها البيانات والتوصيات، كما نجد في قضية فلسطين!!

كما ذكرت في مقدمة البحث أنه تم اختياري لهذه الرواية لأنها تنتسب ضمنيا إلى الروايات التي ناقشت القضية الفلسطينية بأكثر من منظور وجانب، ولكن هذه الرواية أضافت بعدا لم تعرفه الرواية الفلسطينية من قبل من حيث "بلاغة الحنين" التي أخذ بها المؤلف، ونظرا لحداثتها وأهميتها وطرافة القضية التي تتناولها، أحببت أن أختار هذه الرواية كموضوع بحث لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراة. وقسمت هذا البحث إلى ثلاثة أبواب، وكل باب من أبوابه يتناول قضية رئيسية وكل منها يشتمل على ثلاثة فصول.

أما الباب الأول فيحتوي فيه ثلاثة فصول. ذكرت في الفصل الأول عن القضية الفلسطينية والأسباب والدوافع التي مهدت الطريق إلى ظهور الصهيونية السياسية وتأسيس الحركة الصهيونية لإنشاء وطن قومي لليهود في أرض فلسطين، وإصدار الأمم المتحدة إقرارها بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء. وذكرت أيضا عن

المقاومة الفلسطينية في مرحلة ما قبل النكبة، فألقيت الضوء على أساليب المقاومة المتنوعة من قبل الشعب الفلسطيني في الدفاع عن وطنهم رغم قلة التسهيلات والوسائل المتوفرة لديهم.

وذكرت في الفصل الثاني عن التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كتبت فيه بايجاز عن سياسة متحيزة من قبل الدولة الإسرائيلية تجاه المواطنين الفلسطينيين في جميع ميادين الحياة اليومية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية والتراثية ومن النواحي القانونية وامتلاك الأراضي وتشييد المباني ومخصصات السلطات المحلية العربية وأوضاع التربية والتعليم العام والتعليم العالي والعمل والخدمات الصحية العامة والرفاه الاجتماعي والثقافة والإعلام.

ثم ذكرت في الفصل الثالث عن تاريخ النكبة الفلسطينية الكبرى وآثارها البعيدة على المجتمع الفلسطيني والعربي. ناقشت فيه بقدر من التفصيل النكبة وخلفيتها وهجرة اليهود إلى فلسطين والمقاومة الفلسطينية ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني والحرب بين العرب والصهاينة وآثار النكبة البعيدة على الشعب الفلسطيني.

وفي الباب الثاني كتبت تعريفا وجيزا لصاحب الرواية ثم قدمت دراسة موضوعية لـ "رواية مصائر" وبعد ذلك تناولت دراسة فنية للرواية.

وفي الفصل الأول ذكرت عن ربعي المدهون أنه ولد في المجدل بمدينة عسقلان عام 1945م وبعد بضعة سنوات هاجر مع أسرته إلى خان يونس، إبان النكبة، واستقر في مخيم اللاجئين، ونال التعليم الإبتدائي في مدرسة خان يونس، ثم رحل إلى مصر والتحق بجامعة الإسكندرية، ولكن أبعد عن الجامعة بنزاع سياسي ما بين الراحل جمال عبد الناصر والمنظمة التحريرية الفلسطينية، وبعد ذلك سافر إلى ممالك مختلفة من أسيا وأوروبا منها دمشق، عمان، تونس، إيطاليا وموسكو، وعمل في جرائد عربية مختلفة. وأخيرا استقر في لندن وأخذ جنسيتها. ويعمل في جريدة الشرق الأوسط.

وفي الفصل الثاني قدمت دراسة موضوعية لرواية "مصائر" والقضايا التي عالجها فيها بالتفصيل مبينا بأربع حركات/ أجزاء. فإن الرواية تبدأ بانتداب البريطاني على فلسطين، ولكن الحبكة الأساسي للرواية تبدأ من النكبة عام 1948م ، حيث أن إيفانا الأرمينية فسلطينة الجنسية تقع في حب طبيب بريطاني الذي يعمل في معسكر البريطاني، إبان الإنتداب البريطاني، وبعدها تزوج (جون ليتل) معها، بعيدا عن أهلها ووطنها، وأقيمت لهما حفل في بريطانيا. وبعد مضي

سنوات أنجبت أيفانا صبية جميلة تشبه بوالدها وسمياها جولي. وعند الوفاة أوصت إيفانا أردكيان إبنتها جولي أن تنشر نصف رماد جسمها في بريطانيا ونصف الآخر في عكا أي مسقط رأسها. ثم يواصل الراوي بالحركة الثانية والثالثة، وحينما يصل إلى الحركة الرابعة، تبدأ الحكايات الأربعة في التكامل وتتوالف شخصياتها وأحداثها ومكوناتها الأخرى حول النكبة، والهولوكوست والعودة.

وفي الفصل الثالث قمت بدراسة فنية لرواية "مصائر" وبينت فيها أن رواية "مصائر" لربعي المدهون هي من أهم وأفضل روايات عربية التي ألفت حول النكبة الفلسطينية، وهي رواية مفعمة بالحياة والأمل والتمسك بالحق الفلسطيني مهما تفاقمت الأمور من تحديات وأزمات.

وفي الفصل الأول من الباب الثالث قمت بذكر صورة النكبة الفلسطينة الكبرى التي ذكرها صاحب الرواية، وبين فيها صورة المأساة الفلسطينة الكبرى مجتنبا عن المواعظ والميلودراما. وللفسطينين لا يسمح لهم أن يدخلوا / يعودوا إلى أرضهم وطنهم إلا بجواز سفر بلد آخر. وهذا من أكبر المأساة للفلسطينين.

وفي الفصل الثاني ذكرت مكانة رواية " مصائر" لربعي المدهون بين الروايات المماثلة المعاصرة الأخرى. فالرواية مصائر فازت بجائزة بوكر، لذلك نرى اهتم الأدباء بدراسة هذه الرواية. وهناك قائمة طويلة للكتاب والأدباء الذين كتبوا رواية عن

قضية فلسطين ومأساتها ومقاومتها وانتفاضاتها، على سبيل المثال غسان كنفاني، ويحيى يخلف، وجبرا ابراهيم جبرا.

وفي الفصل الثالث ذكرت دور رواية " مصائر" في صحوة الحنين الوطني للفلسطينين في المهجر وفي بلاد أجنبية. وكما وصف بعض الكتاب عن هذه الرواية بـــــــ" الحنين الفعال" أو " المتفاعل" و ببلا غة الحنين.

هذه السطور المذكورة أعلاه تمثل خلاصة رواية " مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة " للكاتب ربعي المدهون وخلاصة هذا البحث. وكما ذكرت داخل البحث بأن الروائي ربعي المدهون ألف روايته هذه بأسلوب جذاب تستسيغه العقول وتنجذب إليه القلوب حتى نالت الاعتراف والاستحسان في مجال الأدب العربي في العالم قاطبة، فيلتمس الباحث من الأصدقاء أن يطالعوا روايته هذه إذا كانوا راغبين في تحسين لغتهم والتطلع على النكبة الفلسطينية. والله هو الموفق والمعين.

تمت بالخير

المصادر والمراجع

1. المدهون، ربعي، طعم الفـراق: ثلاثـة أجيـال فلسـطينية في ذاكـرة: المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، 2001م.
2. المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب: المؤسسة العربية للدراسـات والنشـر، 2009م.
3. المدهون، ربعي، مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبـة: المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر، 2015م.
4. أبـو أصـبع، صـالح، فلسـطين في الروايـة العربيـة: بـيروت، لبنـان: منظمـة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، 1975م.
5. أبو بكر، وليد، الواقع والتحـدي في روايـة الأرض المحتلـة: تـونس: منظمـة التحرير الفلسطينية، دائرة الثقافة، 1988م.
6. توما، إميل، جذور القضية الفلسـطينية: بـيروت، لبنـان: منظمـة التحريـر الفلسطينية، مركز الأبحاث، 1973م.
7. د. محمـد صـالح، محسـن، القضـية الفلسـطينية: خلفياتهـا التاريخيـة وتطوراتها المعاصرة، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، لبنـان، 2012م.

8. د. السويدان، طارق، تاريخ فلسطين المصور: شركة الإبداع الفكري، الكويت، مارس، 2004م.

9. بابيه، إيلان،التطهير العرقي لفلسطين، ون وورلد بابليكيشن، لندن، 2006م.

10. المسيري، عبد الوهاب، مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي: دار الفكر، دمشق، 2003م.

11. د. محمد صالح، محسن، دراسات منهجية في القضية الفلسطينية: مركز الأعلام العربي، 2005م.

12. ديفيد، رون، العرب وإسرائيل للمبتدئين، رايتارس اينـد ريـدرس ببليشـنغ، نيو يورك، 1993م.

13. أبو الهوى، سوزان، بينما ينام العالم: دار النشر: بلومزيري- مؤسسة قطر للنشر، 2012م.

14. البرغوثي، مريد، رأيت رام الله: المركز الثقافي العربي، 2003م. (الطبعة الأولى 1997م.)

15. العامري، سعاد، شارون وحماتي: دار الآداب، 2007م.

16. البرغـوثي، مريـد، ولـدت هناك...ولـدت هنـا، دار ريـاض الـريس للكتـب والنشر، 2009م.

17. د.عمـر، جهينـة، تطـور الروايـة العربيـة في فلسـطين48: (1948-2012)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2012م.

18. حامد، أنور، يافا تعد قهوة الصـباح: المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر، 2012م.

19. حبيبي، إميل، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل: دار ابـن خلدون، 1974م.

20. خليفه، سحر، ربيع حار: دار الآداب، 2004م.

21. خوري، إلياس، باب الشمس: دار الآداب، 2005م.

22. كنفاني، غسان، أم السعد: دار العودة، 1969م.

23. كنفاني، غسان، عائد إلى حيفان: دار العودة، 1985م.

24. نصر الله، إبراهيم، زمن الخيـول البيضـاء: الـدار العربيـة للعلـوم نـاشرون، 2007م.

25. نصر الله، إبراهيم، اعـراس آمنـه: الـدار العربيـة للعلـوم نـاشرون، الطبعـة الثانية، 2009م.

26. نوباني، يامن، ذاكرة اللوز: دار الإسراء للنشر والتوزيع، 2014م.

قائمة المحتويات

ر.م	البيان	الصفحة
1	مقدمة	1
2	الباب الأول: الأوضاع السياسية والاجتماعية في فلسطين وأسباب النكبة الكبرى	8
3	الفصل الأول: تاريخ موجز للقضية والمقاومة الفلسطينية	9
4	القضية الفلسطينية	9
5	المقاومة الفلسطينية في مرحلة ما قبل النكبة	11
6	الفصل الثاني: التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية	16
7	التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات السياسية	18
8	التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات الاقتصادية	21
9	التمييز الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في المجالات الاجتماعية والثقافية	24
10	الفصل الثالث: تاريخ النكبة الفلسطينية الكبرى وآثارها البعيدة على المجتمع الفلسطيني والعربي	27
11	ما هي النكبة؟	27
12	خلفية النكبة	27

13	هجرة اليهود إلى فلسطين	29
14	المقاومة الفلسطينية ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني	30
15	الحرب بين العرب والصهاينة	33
16	آثار النكبة على الشعب الفسطيني	35
17	الباب الثاني: لمحة تعريفية بروايات ربعي المدهون بالتركيز الخاص على الرواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" وكاتبها ومنجها الفني	38
18	الفصل الأول: تعريف موجز بالروائي "ربعي المدهون"	39
19	ربعي المدهون	39
20	حياته الأدبية	40
21	ومن أعماله	41
22	آراء الأدباء حول الكتاب	41
23	الفصل الثاني: دراسة موضوعية لرواية "مصائر"	44
24	حركات الرواية	52
25	الحركة الأولى	52
26	الحركة الثانية	56
27	الحركة الثالثة	57
28	الحركة الرابعة	59
29	بعض الأسماء الواردة في الرواية	62
30	الفصل الثالث: دراسة فنية	64

31	الباب الثالث: دراسة رواية "مصائر" لربعي المدهون	74
32	الفصل الأول: صورة النكبة الفلسطينية الكبرى في رواية "مصائر"	75
33	الحركة الأولى: جثة إيفانا	79
34	الحركة الثانية: فلسطيني تيس	82
35	الحركة الثالثة: باقي هناك	84
36	الحركة الرابعة: يد فشم	85
37	الفصل الثاني: مكانة رواية "مصائر" لربعي المدهون بين الروايات المماثلة المعاصرة الأخرى	88
38	مكانة الرواية	90
39	الفصل الثالث: دور رواية "مصائر" في صحوة الحنين الوطني للفلسطينيين في المهجر	97
40	خاتمة	100
41	المصادر والمراجع	106

Palestinian Resistance in the novels of Rabai Al-Madhoun with special reference to "Masayer"

Dissertation submitted to the Jawaharlal Nehru University
in partial fulfillment of the requirements
forthe award of the Degree of
Master of Philosophy

By
Shariful Islam

Under the supervision of

Prof. MujeeburRahman

Centre of Arabic and African studies
School of language, literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi -67.

2016/2017